اصل النبط في البتراء

بين البحر الميت (بحيرة لوط) وخليج ايلة (العقبة) منخفض من الارض يبلغ طولهُ نحواً من مئة ميل : وهذا المنخفض يعرف بالغور وقد يطلق عليهِ وادي العربة بال او بدونها. وعرض هذا الوادي بين اربعة اميال واربعة عشر ميلاً : وهو قفر بلقع قليل النبات شديد الحر . والى شرقيهِ سلسلة جبال ادوم المعروفة قديماً بجبل سعير وتعرف اليوم بجبال الشراة وجبال الشوبك

في هذه الجبال في منتصف المسافة تقريباً بين البحر الميت وبين خليج العقبة موقع مدينة بترا (البترا) وهي مدينة سالع القديمة عاصمة الادوميين قبل ايام نبوخذ نصّر وتعرف خرائبها اليوم باسم وادي موسى

ان المسافر من الشام الى العربيَّة جنوباً يصل الى هذه المدينة ولا يراها بل لا يرى الاَّ الجبال المحيطة بها . وفيما هو لا يرى الا تلالاً تجيء وتلالاً تذهب يقع بغتة على مطمئن من الارض اذا بلغ منتهاهُ غرباً وقع على سلع او شق او شج بين هذه الجبال وهذا السلع تعلوهُ الصخور عن جانبيهِ كالجدار الى ما يبلغ نحواً من ثلاثمئة قدم او يزيد احياناً . وعرضهُ لا يتجاوز في كثير منهُ بضعة امتار وطولهُ نحو من اثني متر الى الفين وخمسمئة فاذا انتهى المسافر الى آخر هذا السلع انكشف امامهُ مطمئن او قاع من الارض تعلوهُ الجبال من جميع جهاتهِ. واتساع هذا القاع شرقاً بغرب ينحرف الى الشمال نحو من ثلثي ميل وشمالاً بجنوب ينحرف الى الغرب نحو من ميل ونصف الميل . في هذا القاع كانت سالع الادومية او بتراء النبطية مدينة الغنى والتجارة مئات من السنين

لمن كانت هذه المدينة اولا

قلنا انَّ موقع المدينة في منبسط من جبال الشراة وهي الجبال المعروفة في التوراة بجبل سعير . وكان يسكنها قديماً قوم يعرفون بالحوريين والظاهر ان سعير كان اميراً على اولئك الاقوام وبهِ سمي الجبل جبل سعير . اما من كان هؤلاء الحوريين ومن اين جاؤوا فارى انهم من القبائل العربيَّة الجنوبيين اهل اليمن وحضرموت وقد جاؤُا البلاد غازين مع من جاء من القبائل العديدة التي غلبت على سوريا ومصر وكان منها الدولة المعروفة بدولة الرعاة او دولة الهكسوس في بلاد مصر . فان هذه القبائل تغلبت كما ارى على معظم سوريا لذلك الحين كما تغلبت على مصر واقتسمت البلاد فنزلت كل قبيلة منها في ناحية كان لها السيادة

عليها على شاكلة ما كان في ايام الفتوحات العربية الاسلامية وارى ايضاً انَّ اصل الحوريين من اليمن او من حضرموت من قرية او مدينة من مدن تلك البلاد فنسبوا اليها تمييزاً لهم عن غيرهم من بقية قبائل اليمن وحضرموت

وبعد ان استوطن الحوريون البلاد والامارة فيهم لآل سعير ولبثوا فيها حتى سميت الجبال باسمهم وعرفت البلاد انها بلادهم جاءت القبيلة العبرانية الشهيرة اعني قبيلة ابراهيم الخليل ونزلت البلاد غربيَّ الاردن وكانت تتردَّد فيها من شكيم في الشمال الى بير سبع في الجنوب

ولما كانت هذه القبيلة العبرانية دخيلة على من سبقها الى البلاد من القبائل العربيَّة الجنوبية كان لا بدَّ لها بحكم الضرورة والعادة من ان تحالف من كانت تنزل في جواره من الامراء والرؤساء وهكذا جاء النصُّ صريحاً في سفر التكوين ان ابراهيم الخليل حالف عانر واشكول وممرا في حبرون وابيمالك ملك الفلسطينيين في جرار على مقربة من بيرسبع. وجاء ايضاً في السفر نفسه انهُ اي ابراهيم اعطى عشراً من كل شيء لملك صادق ملك شاليم بعد ان رجع من محاربة كدرلومر ملك عيلام. وبالاجمال كانت القبيلة في اول امرها كما يقول الكتاب غرباء ونزلاء لا يملكون في البلاد شبراً من الارض ولعلَّ حقل المكفيلة في حبرون كان اول قطعة من الارض تملكوها بجوار المدن او القرى الكبيرة اشتراها ابراهيم من عفرون بن صوحر الحثيّ باربعمئة شاقل من الفضة مدفناً ليدفن فيه سارة زوجتهُ

الاَّ ان القبيلة لم تلبث كثيراً في البلاد حتى انقسمت الى قسمين انحاز احدهما الى لوط (ابن اخي ابراهيم) وبقي الآخر وهو اكبر القسمين في الراجح مع ابراهيم وتحت رئاسته فهدَّ ذلك من ابراهيم وفتَّ في ساعده حتى همَّ ان يعود الى مصر مخافة ان تتخطفهُ امراء البلاد الكثيرون ولم تطمئنَّ نفسهُ الاَّ بعد ان ظهر لهُ الله وطيب خاطرهُ بان وعدهُ ان يعطيهُ البلاد لهُ ولنسلهِ من بعده. ومع ذلك ترك البلاد في جهات نابلس حيث كان وارتحل الى الجنوب واقام عند بلوطات ممرا وربما كان ذلك بعد ان استوثق من عانر واخويه اشكول وممرا وهم امراء الدبرة في حبرون وجوارها بحلف عقدهُ معهم. وارجح ان ابراهيم فضَّل الاقامة بين حبرون وبير سبع بعد انفصال ابن اخيه عنهُ لما آنس في نفسه من الضعف بعد ذلك الانقسام ولان البلاد في جهات نابلس كانت اكثر ساكناً وامراء فخاف من ثمَّ كثرة التقاضي على المرعى والجوار بكثرة الامراء بخلاف البلاد بين حبرون وبيرسبع فانها كانت اقلَّ ساكناً وامراء فضلاً عن انها اقرب الى البرية حصن اهل الخيام الذي يدفع عنهم تعدّي اهل المدن واطماعهم

والظاهر من سفر التكوين (وهو في رأيي تاريخ لامراء هذه القبيلة ابراهيم واسحق

ويعقوب قصداً ومن كان له علاقة بهم كلوط وعيسو عرَضاً كتبه يوسف بعدان صار وزيراً لفرعون ومسلَّطاً على ارض مصر) ان لوطاً لما لم يبق لهُ مطمع بالاستقلال مع الكنعانيين ورأى نفسهُ مكثوراً منهم مغلوباً لعصبيتهم سواء سكن المدن او الخيام اخلد الى الحضارة ووطن نفسه على مخالطة القوم والسكنى بينهم مقهوراً فسكن من ثمَّ في سدوم مستضعفاً لا يقوى على حماية ضيفهِ من تعدّي السفهاء ولا ان يدفع عنهم سفالة الغوغاء

واما ابراهيم فكان اشدّ شكيمة من ابن أخيه واكثر مالاً وتابعاً منهُ فلم يرَ ما رآه ولا انكسر انكسارهُ ففضَّل من ثمَّ سكنى الخيام على سكنى المدينة وبقي يتنقل في البلاد تارةً ينزل في جهات حبرون واخرى في جهات بير سبع

وطالت غربتهُ في كنعان وامتدّت بهِ الايام ولم يتغير عن عزمهِ الاول في ارادة الاستقلال عن اهل البلاد وترك مخالطتهم ولعل السبب في ذلك انهُ كان اعرق في البداوة من اولئك الكنعانيين فكان من ثمَّ لا تعجبهُ اطوارهم ويأنف من كثير من آدابهم وعوائدهم وفقاً لما تراهُ حتى الساعة من تجافي امراء البادية عن المدن وانفتهم من كثير مما فيها وفي اهليها. ولعلهُ فضلاً عن منصبهِ الديني كان يرى بيتهُ وان كان نزيلاً على الكنعانيين اكرم محتداً واعلى شرفاً من بيوتاتهم . وما زال هذا الفكر شديداً في نفسهِ الى ان ماتت سارة اميرة قومها وسيدة عقيلات القبيلة عن آخرهن

فبعد موتها اغضى شيئاً عن انفته السابقة وانكسرت حدة ما كان يراه من التفاوت بينه وبين الكنعانيين بدليل انه مال الى مصاهرتهم واخذ قطورا احدى بناتهم زوجة لهُ. على انه وان يكن قد رضي ان يأخذ لنفسه زوجة من بنات كنعان لم يرض ان يأخذ منهم لابنه اسحق لانه كان يراه الوارث الشرعي لامارة القبيلة وفيه عزها وبقاء مزيتها الان سيادتها كانت تحيط به من جانبيه دون بقية اخوته ولذلك ارسل الى عشيرته والى بيت ابيه فخطب له من هناك اميرة من بنات عمه رفقة ابنة بتوئيل بن ناحور اخي ابراهيم

وكبر بيت ابراهيم وكان له غير اسمعيل واسحق اولاد كثيرون من قطورا ومن حجين او رعوة على قول بعض المؤرخين (انظر ابن خلدون جزء ٣ وجه ٣٨ و٣٩). وحدث فيه من الفرقة ما يحدث عادة في امثاله من بيوت رؤساء القبائل الشرقية فذهب اسمعيل في جهة ومعه قسم من القبيلة في الراجح وابناء قطورا في جهة اخرى ومعهم قسم آخر وكذلك ابناء رعوة او حجين. الا ان معظم القبيلة بقي مع اسحق في جهات بير سبع فأنه كان يفضل الاقامة هناك في جوار الفلسطينيين كما كان ابوه يفضل حبرون وجوار بني حث . وعقد

اسحق حلفاً مع ابيمالك ملك جرار وكان ابراهيم ابوه من قبل قد عقد حلفاً مع ابي ابيمالك هذا على الارجح

قلنا ان ابراهيم كان يرى في اسحق الوارث الشرعي لرئاسة قبيلته وانه كان يربأ بنفسه عن مخالطة الكنعانيين ومصاهراتهم فارسل من ثم عبده الى بيت ابيه في ارام النهرين وخطب له ابنة عمه رفقة فولد له منها ولدان توأمان هما عيسو ويعقوب ولما كبر الولدان وقعت المغايرة والمنافسة بينهما على رئاسة القبيلة . وكانت الرئاسة لعيسو لانه البكر وكان اسحق ابوه يحبه ايضاً ويفضله على اخيه الا ان رفقة كان هواها مع يعقوب فعملت معه على كيد عيسو وبحيلتها صرفت عنه بركة ابيه فحز ذلك في نفسه واشتد الخلاف بينه وبين اخيه . وكان عيسو على ما ارى محبباً الى القبيلة وهواها معه فلما عظم الخلاف بينه وبين اخيه كما اشرنا اليه وبلغ الامر غايته تخوف يعقوب على نفسه وعلم ان لا بقاء له مع اخيه ورأت رفقة امه ايضاً حرج حالته فارسلته الى فدان ارام الى بيت خاله لابان

وبعد ان هرب يعقوب الى فدان ارام انفرد عيسو برئاسة القبيلة وكانت بير سبع حيث يقيم هو وقبيلته قريبة من جبل سعير (جبال الشراة) فتعرف عيسو بامرائها من آل سعير وخطب منهم احدى بناتهم واسمها اهوليبامة فزوجوه وحالفوه فترك بير سبع ونزل عليهم في ديارهم فاشتملوا عليه واختلطت القبيلتان ومع الايام كثر آل عيسو آل سعير وغلبوا عليهم حتى تنوسي امر الحوريين واصبحت البلاد خالصة للادوميين وتسمت باسمهم ايضاً ولم يبق من اثر لامراء آل سعير الحوري الا الجيل ما زال يعرف باسم امرائه الاولين مئات من السنين بعد انقراضهم ولا يزال علماء الكتاب والتاريخ يعرفونه بهذا الاسم وهو اشهر عندهم من الشراة لحد هذه الساعة

ظهر لنا مما مر ان البلاد كانت اولاً للعرب الجنوبيين المعروفين باسم الحوريين وانهم كانوا من جملة القبائل التي غزت سوريا ومصر في ايام دولة الرعاة المشهورة في مصر ثم غلبهم عليها الادوميون نحو ١٥٠٠ قبل المسيح . والادوميون هم ابناء عم اليهود كالعرب الاسماعيلي الا انهم اقرب اليهم من هؤلاء فانهم اخوتهم من اسحق ابن ابراهيم وسارة والاسماعيليون ابناء عمهم اسمعيل ابن ابراهيم من هاجر جارية سارة كما هو المتعارف والمشهور

كم من الزمان بقيت جبال سعير ومدينتها الحصينة سالع (البترا) في يد الادوميين

بعد ان خرج الاسرائيليون من مصر وبقوا المدة المشهورة في التيه جاؤا اخيراً الى قادش فارسل موسى من هناك رسلاً الى ملك ادوم يقول فيها

« هكذا يقول اخوك اسرائيل قد عرفت كل المشقة التي اصابتنا . ان آباءنا انحدروا الى مصر واقمنا في مصر اياماً كثيرة واساء المصريون الينا والى آبائنا فصرخنا الى الرب فسمع صوتنا وارسل ملاكاً واخرجنا من مصر وها نحن في قادش مدينة في طرف تخومك دعنا نمر في ارضك » الخ

وظاهر جلياً من هذه الرسالة ان الادوميين كانوا لذلك الحين قد استولوا على البلاد ولم يبق معهم اسم للحوريين ولاذكر لامرائهم من آل سعير واصبحت البتراء (سالع) قرية من قراهم او مدينة من مدنهم لكن لم يتم هذا الاستيلاء للادوميين الا بعد ان جرت بينهم وبين اخوانهم حروب شديدة كانت الدائرة فيها اخيراً على آل سعير فانجلوا عن البلاد وغادروها ملكاً لآل عيسو يتولاها ملك منهم يرجع اليه امر بقية الامراء والرؤساء ويدينون له بالطاعة . كل ذلك تم وابناء عمهم آل يعقوب كانوا لا يزالون في مصر (انظر سفر التثنية ص ٢ : ٢١ و ٢٢)

وخرج الاسرائيليون من مصر وجاؤا بلاد كنعان فحاربوا الاموريين وغيرهم من القبائل الكنعانية شرقي الاردن وغربيه ولم يتعرضوا اولاً لانسبائهم من القبائل العبرانية اعني الادوميين والموابيين والعمونيين وكانوا لذلك الحين قد رسخت قدمهم في البلاد واقتطعوا لهم نصيباً معيناً فيها

والذي اراه ان هذه القبائل التي ذكرناها كان ضامها مع الاسرائيليين لما يعرفونه لهم من القرابة في النسب ولما كان بينهم وبين جيرانهم القبائل الكنعانية من الحروب والعداوات (راجع تثنية ص ٢) . واستمر الادوميون في بلادهم لا ينازعهم منازع في ارضهم ولا يطمع في اخضاعهم احد من جيرانهم الموابيين والاسرائيليين الى ايام شاول اول من ملك على بني اسرائيل . فلما ملك وانضوى اليه الاسباط الاثنا عشر — وكانوا من قبل قد تفرقت كلمتهم وانخضدت شوكتهم — أدى ذلك الى التحكك بالقبائل المجاورة ومن جملتهم الادوميون (انظر صموئيل الاول ص ١٤ : ٤٧) فجرت مناوشات بينه وبينهم ولا يبعد ان يكون سبب ذلك ان الادوميون انتصروا للعمالقة على شاول او انهم تعدوا على حدود الاسرائيليين الجنوبية حيث تماس تخوم سبطي يهوذا وشمعون بتخوم الادوميين ومهما يكن من سبب تلك المناوشات التي اجراها شاول فالمرجح انها كانت من قبيل الدفاع عن التخوم دفعاً لعادية الادوميين لا من قبيل الطمع في اخضاعهم فانقضى من ثم ملك شاول ولم يكن كبير امر بين اسرائيل وادوم

فلما ملك داود واجتمعت اليه كلمة الاسباط الاثني عشر واخذ اورشليم عنوة من

اليبوسيين وجعلها داراً للكراع ذلك الامم المجاورة ولا سيما الفلسطينيين وتخوفوا عاقبته عليهم فناصبوه العداوة وفتحوا عليه ابواب حرب شديدة الا انها لم تغلق الا بعد ان ذلوا وتركوا له ما كانوا استولوا عليه من بلاد اسرائيل في ايام شاول وما قبله ايضاً

وكان الادوميون من جملة الامم الذين حاربوا داود ولا نعلم ماذا كان سبب تلك الحرب الا ان يكون المزاحمات التجارية والظاهر ان الادوميين ضايقوا داود اولاً بدليل ما ورد من الاشارات في منظوماته ومن تلك الاشارات ما جاء في المزمور ١٠٨ فانه يقول فيه من يقودني الى المدينة المحصنة من يهديني الى ادوم اليس انت يا الله الذي رفضتنا ولا تخرج يا الله مع جيوشنا اعطنا عوناً في الضيق فباطل هو خلاص الانسان . بالله نصنع بأس وهو يدوس اعداءنا »

ولاشك انه يشير بالمدينة المحصنة الى سالع (البتراء) وهي من احصن مدن البلاد وقل ان تكون مدينة احصن منها — كما يتبين من اللمحة التي وصفنا بها موقعها في أول مقالتنا هذه — الا ان الغلبة كانت اخيراً لداود فأنه التقى بالادوميين في وادي الملح الى جنوبي بحيرة لوط وقد جمعوا له قواتهم عن آخرها فسير اليهم ابشاى بن صروية اخته وكان من نخبة قواده ونشبت بينه وبينهم معركة من اعظم المعارك واشدها هولاً فأسفرت عن ثمانية عشر الفاً قتلى من الادوميين وهذه المعركة هي المعركة الوحيدة التي في تاريخ داود انه نصب لها تذكاراً وكان من نتيجتها ان الادوميين ذلوا لداود واستعبدوا له فوضع له محافظين في ادوم كلها وضرب عليهم جزية ما زالوا يؤدونها له ولاعقابه الى ان قام يهورام ابن يهوشافاط فانهم عصوا يهوذا في ايام هذا الملك ورجع اليهم استقلالهم مدة الى ان اخضعهم امصيا احد ملوك يهوذا الا انهم عادوا الى استقلالهم وما زالوا على ذلك الى ايام نبوخذ نصر ملك بابل الذي افتتح اورشليم وسبى معظم اهلها الى عاصمة بلاده في اوائل القرن السادس قبل المسيح

وخلاصة ما ذكرناه ان سالع (البتراء) بقيت في حوزة الادوميين مدة تزيد عن الالف سنة قام في اثنائها ملوك كثيرون على ادوم وكثيرون من هؤلاء ملكوا في ادوم قبل ان يملك ملك على بني اسرائيل . وامتد نفوذ الادوميين في اول امرها وفي آخره قبل غزوة نبوخذ نصر الى يهوذا وفلسطين فبلغ الحجاز ونجداً شرقي المدينة (يثرب) وشماليها وكانت طريق القوافل تمر عليها من العربية السعيدة جنوباً وخليج فارس شرقاً فكثر بذلك غنى اهلها وعظم جاههم فاشتدت كبرياؤهم ولا سيما على اليهود جيرانهم وابناء عمهم في اورشليم واليهودية فحز ذلك حتى في نفوس الانبياء منهم وانذروهم بسوء المصير . قال ارميا النبي

يخاطب الادوميين . قد غرك تخويفك كبرياء قلبك يا ساكن في محاجىء الصخر الماسك مرتفع الاكمة . وان رفعت كنسر عشك فمن هناك احدرك يقول الرب وتصير ادوم عجباً كل مار بها يتعجب ويصفر بسبب كل ضرباتها (ارميا ص ٤٩)

وقال حزقيال — هكذا قال السيد الرب من اجل ان ادوم قد عمل بالانتقام على بيت يهوذا وأساء اساءة وانتقم منه لذلك هكذا قال السيد الرب وامد يدي على ادوم واقطع منها الانسان والحيوان واصيرها خراباً من التيمن والى ددان يسقطون بالسيف (حزقيال ص ٢٥ : ١٢ و١٣)

وقال حزقيال ايضاً — هكذا قال السيد الرب ها انذا عليك يا جبل سعير وامد يدى عليك واجعلك خراباً مقفراً . اجعل مدنك خربة وتكون انت مقفراً وتعلم اني انا الرب لانه كانت لك بغضة ابدية ودفعت بني اسرائيل الى يد السيف في وقت مصيبتهم وقت اثم النهاية لذلك حي انا يقول السيد الرب اني أهيئك للدم والدم يتبعك . اذا لم تكره الدم فالدم يتبعك فاجعل جبل سعير خراباً ومقفراً واستأصل منه الذاهب والآئب (حزقيال ص ٣٥)

وفيما نقلته شاهد لا يرد على ان الادوميين كانوا سكان جبل سعير الى ايام حزقيال وارميا وان ذلك الجبل كان فيه غير مدينة من جملتها سالع (البترا) وان الادوميين كانوا متبسطين فيها وراء جبل سعير وان البلاد من تيمان الى ددان كانت خاضعة لهم او على الاقل كانت تمر بها قوافلهم وتجاراتهم لا يعارضها اهل البلاد من العرب اما لحلف كان لهم معهم او رهبة من سطوتهم وخيفة من انتقامهم

اما تيمان المشار اليها في حزقيال فواقعة الى الجنوبي الشرقي من البتراء ولعلها هي تيماء الحالية الى شمالي مدائن صالح . واما ددان فارجح انها دد التي يشير اليها الشاعر العربي بقوله

كأن حدوج المالكية غدوة خلايا سفين بالنواصب من دد

ودد موضع بسيف كاظمة من ارض البحرين والالف والنون فيها مزيدتان للنسبة كما في عبادان ومهلبان وجبيران ومحمدان وزيادان وعميران وخالدان وعبد الرحمانان نسبة الى عباد ومهلب وجبير ومحمد وزياد وعمير وخلد وعبد الرحمان على طريقة البصرة

بقي علينا في مقالتنا الحاضرة سؤال نسأله ونجيب عليه تأسيساً لما يبنى عليه كلامنا في المقالة التالية التي نأتي فيها على ذكر الانباط واصلهم تتمة للبحث الذي نحن فيه والسؤال هو من هي القبائل او الامم التي كانت تسكن سوريا وجبال الشراة في ايام نبوخذ نصر. والجواب ما يأتي

(١) الاراميون في دمشق وتوابعها وفي أيلة على البحر الاحمر
(٢) اليهود اعني سبطي يهوذا وبنيامين ومن بقي في البلاد من بقايا الاسباط العشرة
(٣) السمرة في نابلس وجوارها
(٤) العمونيون
(٥) الموابيون
(٦) الادوميون
(٧) الفينيقيون اهل صور وصيداء والملحقات بهما
(٨) الفلسطينيون في غزة وعسقلان واشدود
(٩) العرب
(١٠) اخلاط من الكنعانيين على اختلاف قبائلهم

هذه هي الشعوب التي كانت في البلاد عند ما غزا نبوخذ نصر سوريا او ارض كنعان وافتتح اورشليم . وسنرى في المقالة التالية اسم الانباط والنبطيين زيد على هذه الاسماء المارة وعرف في ايام خلفاء الاسكندر ونذكر اذ ذاك ما يتعلق باصلهم والبلاد التي جاؤوا منها

قامت الدولة الأشورية الثانية وغلبت على البلاد البابلية كما غلبت عليها الدولة الاولى من قبل فصارت بابل مدينة ولاية لا عاصمة مملكة وحاولت غير مرة أن تسترد استقلالها فلم تفلح . وقسا عليها ملوك اشور سرجون وسنحاريب واشور بانيبال ولاسيما سنحاريب فانه دكّ اسوارها الى اساساتها وهدم قلاعها واحرق المدينة بالنار لم يشفق على شيء ولا رعى حرمة شيء وان كان مقدساً بل حرق وهدم حتى المعابد والهياكل فلم يبق ولم يذر . ومع ذلك أعيد بناؤها في ايامه فعادت إلى العظمة التي كانت لها بعد زمن قصير . ثم اخذت الدولة الاشورية تضعف واسباب ضعفها معلومة فانها الظلم والعنف وهو الامراء والكبراء وانهماكهم في المعاصي والشهوات ودوسهم الشرائع وكل ما هو مقدس تحت اقدامهم . فبشر الظالمين العتاة الباغين ان استدراجهم لا يدوم ولا بد أن يبلغ الكتاب أجله

كان نبوبلاسر والياً على بابل من قبل ملوك نينوى ورأى ما صاروا اليه من الانهماك في المعاصي والشهوات كما رأى ذلك امراء مادي وفارس فعقد معهم حلفاً على اكتساح الممالك الاشورية فشقوا عصا الطاعة وزحفت جنود البلادين على نينوى ومازالوا على حصارها حتى افتتحوها عنوة وعادوا عنها وقد فلحوها وزرعوها ملحاً واقتسموا ملحقاتها فوقعت البلاد غربي الفرات للبابليين

إلا ان شعوب سوريا وفلسطين كانت تطمع في عود استقلالها اليها او شيء منه وكانت

مصر أيضاً قد انتبهت من خمولها وقام عليها ملوك فيهم همة ولهم مطامع ومنهم فرعون نخو فطمع هذا في استرداد ما كان للفراعنة من النفوذ في بلاد الشام واقتطاع قسم كركميش على الفرات . والظاهر ان شعوب سوريا وفلسطين من ادوميين وموابيين وعمونيين وارامييين انحازوا اليه إلا يوشيا ملك يهوذا فانه بقي على ولائه للاشوريين فتصدى لمعارضة نخو إلا انه قتل في مجدو في جهات الجليل . وعاد نخو من ارض ربلة في حماه فمر على اورشليم وعزل يهواحاز الذي كان قد ملك مكان أبيه وارسل به اسيراً إلى مصر فمات هناك وملك اخاه يهوياقيم بدلاً منه وغرم الارض بمئة وزنة من الفضة ووزنة من الذهب

ولما رأى نبوبلاسر ما رأى من تحالف ممالك الشام وانحيازهم الى جانب الفراعنة عقد اللواء لابنه نبوخذنصر وجعله قائداً اكبر للجنود البابلية فسار نبوخذ نصر حتى جاء الى كركميش حيث كانت جنود المصريين فاتشبت بينه وبينهم معركة هائلة فاز فيها نبوخذ نصر فوزاً مبيناً وارتد نخو منهزماً لا يلوي على شيء فوضع نبوخذ نصر يده على كركميش وجعل فيها حامية من قبله ثم تعقب المنهزمين الى سوريا وفلسطين

والظاهر ان اغلب شعوب هاتين البلادين انخلعت قلوبهم بعد واقعة كركميش فاذعنوا بالطاعة لنبوخذ نصر لم يبدوا كبير مقاومة الا صور لشدة ما كان بينها يومئذ وبين المصريين من استحكام علائق المودة والمصافاة . فان فرعون نخو هذا على ما يذكرون قرب الصوريين اليه وجعل منهم رؤساء لعمارة له طافوا فيها حوالي افريقيا فمروا برأس الرجا الصالح ثم داروا من هناك شمالاً حتى وصلوا بوغاز جبل طارق ومنه الى السويس . وفوق ذلك كان هذا الملك وصل بترعة بين السويس والبحر المتوسط وحول الى السويس تجارة الهند واليمن وشواطىء افريقيا على البحر الاحمر وكل شواطىء الزنج من باب المندب الى الموزمبيق فاتت بهذا التحويل تجارة ايلة وعاش السويس فانحصرت من ثم ارباح هذه التجارة الواسعة بين المصريين والصوريين ولذلك يهمهم ان تكون الغلبة لمصر او اقله يبقون على استقلالهم وتبقى علائقهم مع المصريين على ما كانت عليه

وجاءت جنود نبوخذ نصر اول مرة الى اورشليم فتلقاهم اليهود بالطاعة والاذعان ونبذوا عنهم ولاء المصريين إلا انهم بعد ارتداد الجيوش الكلدانية الى بابل واشتغال نبوخذ نصر عن الشام باطفاء بعض الثورات الداخلية عادوا الى ولاء مصر وطمعوا بنصرتها فانتقضوا على نبوخذ نصر فبعث هذا غزاة من الكلدانيين انضاف اليهم غزاة من الموابيين والعمونيين والادوميين والارامييين فضايقوا اليهود . ومات في تلك الاثناء ملكهم يهوياقيم وملك ابنه يهوياكين مكانه فلم يلبث إلا ثلاثة اشهر ثم استسلم هو وامه

وعبيده ورؤساؤه وخصيانه لنبوخذنصر . وسبى نبوخذ نصر كل اورشليم وكل الرؤساء وجميع جبابرة البأس وجميع الصناع والاقيان لم يبق إلا مساكين شعب الارض وملك عليهم صدقيا عم يهويا كين

وعاد نحو في ايام صدقيا الى مراسلة اليهود واغرائهم بالعصيان وان يكونوا يداً واحدة على ملك بابل ومال الى جانب المصريين اكثر الامم المجاورة اليهود ايضاً . وكان في اليهودية حزبان احدهما لنبوخذ نصر واشهر رجاله ارميا النبي وحزب آخر المصريين كان فيه اكثر العظماء والرؤساء فغلبوا على الملك صدقيا فلم يقو على مخالفتهم فيما لو اراد واشتدت الفتنة في السنة التاسعة لملكه وجهروا بالعصيان فعاود نبوخذ نصر الكرة عليهم ونزلت جيوشه على اورشليم وشددوا عليها الحصار . وكان الملك وحزبه ينتظرون من حين الى آخر قدوم المصريين لمساعدتهم فخابت آمالهم وعضهم ناب الجوع والفشل فلم تبق فيهم قوة للمدافعة واخذ كثيرون يتسللون الى الكلدانيين

وعلى مايظهر لي من مراجعة سفر ارميا ص٣٨ و٣٩ ومن مراجعة خبر حصار اورشليم وافتتاحها في سفر الملوك الثاني ان حزب ارميا النبي قوي في آخر مدة الحصار حتى ان صدقيا الملك كان يحدث نفسه بالانضمام اليهم ولكنه كان ضعيف الهمة متردداً لا عزيمة له وما زال يسوف الامر حتى خرج من يده وغلب حزب ارميا وفتحوا المدينة للكلدانيين فلم يشعر صدقيا إلا ورؤساء ملك بابل في المدينة في الباب الاوسط فلما رآهم صدقيا هو وكل رجال الحرب هربوا وخرجوا ليلا من المدينة في طريق جنة الملك من الباب بين السورين وخرج هو في طريق العربة ولكنه أدرك في عربات أريحا واخذ من هناك الى ربلة في ارض حماة حيث كان نبوخذ نصر فحاكموه امامه وحكموا عليه ان يقتل بنوه على مرأى منه ثم تفقأ عيناه ويقيد بسلسلتين ويرسل الى بابل

والظاهر ان حزب ارميا كان يطمع بنجاة المدينة اذا هم سلموها للكلدانيين فتسلم من الحريق والتخريب اقله بيوتهم واموالهم ولكن بدا لنبوخذ نصر فامر بدك اسوار المدينة وهدم هيكلها ومافيها من القصور والبيوت وتحريقها بالنار وارسل من قبله نبوزرادان رئيس الشرط لينفذ فيها امره فجاء هذا الى اورشليم في الشهر الخامس في سابع الشهر — وكانت المدينة اخذت في الشهر الرابع في تاسع الشهر — فاحرق بيت الرب وبيت الملك وكل بيوت أورشليم وكل بيوت العظماء أحرقها بالنار وجميع أسوار المدينة مستديراً هدمها كل جيوش الكلدانيين الذين مع رئيس الشرط وبقية الشعب الذين بقوا في المدينة والهاربون الذين هربوا إلى ملك بابل وبقية الجمهور سباهم نبوزرادان رئيس الشرط ولكنه ابقى

من مساكين الارض كرامين وفلاحين (أنظر الملوك الثاني ص٢٥)

وأوصى نبوخذنصر ملك بابل على ارميا نبوزارادان رئيس الشرط قائلا خذه وضع عينيك عليه ولا تفعل به شيئاً رديئاً بل كما يكلمك هكذا افعل معه . فارسل نبوزرادان رئيس الشرط ونبوشزبان رئيس الخصيان ونرجل شراصر رئيس المجوس وكل رؤساء ملك بابل ارسلوا فاخذوا ارميا من دار السجن واسلموه لجدليا بن اخيقام بن شافان فسكن بين الشعب (انظر ارميا ص ٣٩)

وعدرؤساء الجيش الذين كانوا من حزب ارميا ممن سلموا المدينة ان مافعله نبوخذنصر من احراق المدينة وبيوتهم في جملتها غدراً واخلافاً فضعفت ثقتهم بارميا وبالكلدانيين ولذلك لما قام بعضهم وهو اسمعيل ابن نثنيا من النسل الملوكي وقتل جدليا بن اخيقام الذي ولاه نبوخذ نصر على بقية الشعب لثلاثة أشهر من ولايته تذكر البافون وتخوفوا ان يتهموا بمالأة اسمعيل على قتله ويؤخذوا بتبعة فعلته فحولوا وجوههم وجهة مصر ولكنهم أرادوا ظاهراً أن يستشيروا ارميا قبل ان يمضوا الى قصدوا اليه واليك ماجاء في سفره في شأن هذه الاستشارة قال :

فتقدم كل رؤساء الجيوش ويوحانان بن قاريح ويزنيا بن هوشعيا وكل الشعب من الصغير الى الكبير وقالوا لارميا ليت تضرعنا يقع امامك فتصلي لاجلنا الى الرب الهك لاجل كل هذه البقية — فيخبرنا الرب الهك عن الطريق الذى نسير فيه والامر الذي نفعله وقالوا لارميا ليكن الرب بيننا شاهداً صادقاً وأميناً اننا نفعل حسب كل أمر يرسلك به الرب الهك الينا — وكان بعد عشرة أيام إن كلمة الرب صارت إلى أرميا فدعا يوحانان بن قاريح وكل رؤساء الجيوش الذين معه وكل الشعب من الصغير إلى الكبير وقال لهم : ماخلاصته البقاء في البلاد على ولاء الكلدان

ولما فرغ ارميا من خطابه لجميع الشعب — قال عزريا بن هوشعيا ويوحانان بن قاريح وجميع الرجال العتاه لارميا انك متكلم بالكذب والرب الهنا لم يرسلك قائلا لا تنطلقوا الى مصر لتتغربوا هناك بل باروخ بن نيريا مهيجك علينا لتدفعنا ليد الكلدانيين ليقتلونا وليسبونا الى بابل الخ (انظر ارميا ص ٤٣)

وظاهر من جوابهم هذا حقدهم على الكلدانيين وتخوفهم من غدرهم وظاهر ايضاً ان ثقتهم بارميا وصلت الى منتهى الضعف حتى اتهموه بالكذب في وجهه وانه آلة في يد باروخ بن نيريا . ولعلهم في تلك الاثناء وصلتهم رسائل من مصر او من احلافهم في صور فردتهم الى رأيهم القديم من المحازبة والولاء للمصريين ومن ثم قاموا وذهبوا الى مصر

وأخذوا ارميا معهم بالرغم عنه ولم يسمعوا لصوته. وفي التقاليد اليهودية انهم قتلوه في مصر. ولعلهم لما اكثر هناك من ملامتهم وقرفهم بمعاصيهم وماكانت تأتيه نساؤهم من النذور والتقتير وسكب السكائب لملكة السماء اجترأوا عليه فانكروا نبوته واستخفوا بكهنوته واتهموه كما اتهمه شمعيا النحلامي من قبل انه مجنون متنبيء وداعي فتنة وسجن فشكوه إلى فرعون او أحد عماله بالخيانة والتحزب للبابليين فامرهم به فقتلوه

انا لانعلم تفاصيل اخبار نبوخذ نصر واعظم ماحفظ لنا منها انما هو المذكور في سفر ارميا وفيه يظهر ان الرسل كانت تتردد بين صدقيا ملك يهوذا وبين الملوك المجاورين اعني الادوميين والمؤابيين والعمونيين وملك صور وملك صيدا وكذلك كانت تتردد الرسل والمراسلات بين الذين كانوا سبوا الى بابل من يهوياكين وبين الذين بقوا في اورشليم وغاية كل هذا التراسل انما هو الفتنة وحمل اليهود على العصيان . والظاهر من رسائل ارميا الى المسبيين أن كان انبياؤهم يمنونهم بقرب العودة من السبي . واليك صورة رسالة منه الى المسبيين ارسلها قال فيها : هكذا قال رب الجنود اله اسرائيل لكل السبي الذي سبيته من اورشليم الى بابل ابنوا بيوتاً واسكنوها واغرسوا جنات وكلوا ثمرها خذوا نساء ولدوا بنين وبنات وخذوا لبنيكم نساء واعطوا بناتكم لرجال فيلدن بنين وبنات واكثروا ولا تقلوا واطلبوا سلامة المدينة التي سبيتكم اليها وصلوا لاجلها إلى الرب لانه بسلامها يكون لكم سلام لانه هكذا قال رب الجنود إله اسرائيل لا تغشكم انبياؤكم الذين في وسطكم وعرافوكم ولا تسمعوا لاحلامكم التي تتحلمونها لانهم انما يتنبأون لكم باسمي بالكذب انا لم ارسلهم يقول الرب (ارميا ص ٢٩)

واعجب من ذلك ان حنينا بن عزور النبي (او المتنبي) يكلم ارميا في بيت الرب امام الكهنة وكل الشعب بما يأتي : ـ هكذا تكلم رب الجنود اله اسرائيل قائلاً قد كسرت نير ملك بابل في سنتين من الزمان ارد الى هذا الموضع كل آنية بيت الرب التي اخذها نبوخذ نصر ملك بابل من هذا الموضع وذهب بها الى بابل وارد الى هذا الموضع يكنيا بن يهوياقيم ملك يهوذا وكل سبي يهوذا الذين ذهبوا الى بابل يقول الرب لاني اكسر نير ملك بابل ـ وقال ارميا النبي امين هكذا ليصنع الرب . ارميا ص ٢٨

والذي أراه من تكرار عصيان اليهود ان أقوال هؤلاء الانبياء المشار اليهم والاماني التي كانوا يمنون بها الشعب لم تكن عن مجرد هوس وتكهن لاسند له بل لابد لذلك من سبب ولعل السبب كان اشتباك نبوخذ نصر بحروب العيلاميين والعرب وتغلغله في صحراء العربية القليلة المياه وجبالها العسرة المسالك فكانوا يظنون ان الدائرة ستدور عليه هناك

فيتغير الملك وتتغير السياسة بتغيره . وفيما جاء في آخر سفر ارميا وآخر سفر الملوك الثاني مايستدل به على ان كان موالاة وتحالف بين اويل مرودخ بكر نبوخذ نصر وبين يهويا كين ملك يهوذا فان اويل هذا — وكان قد سجن في ايام أبيه حيث كان يهويا كين مسجوناً — لما تولى منصة الملك بعد أبيه رفع رأس يهويا كين وأخرجه من السجن وجعل كرسيه فوق كراسي الملوك الذين معه في بابل وكان دائماً يأكل الخبز أمامه كل أيام حياته. فلا يبعد ان تكون هذه الموالاة هي الاساس الذي بني عليه حنيا بن عزور نبوته التي نقلناها آنفاً

دعنا نسأل هنا لماذا سجن اويل مرودخ وهو بكر نبوخذنصر . انه لا يعلل عن سبب سجنه تعليلا اقرب الى القبول وينطبق على ماصنعه ليهويا كين حال تسنمه اريكة الملك وفي الوقت نفسه يوافق ايضاً آمال اليهود المشار اليها في سفر ارميا إلا ان اويل مرودخ (وكان سفيهاً غراً على ما نقل من اخباره) أغري بخلع أبيه والاستيلاء على عرش المملكة دونه أثناء غيابه في غزواته وان يهويا كين وامراء يهوذا المسبيين كانوا ممن دخل معه في هذه المؤامرة ان لم يكونوا هم الذين حملوه عليها وحسنوها له ومنوه بانحياز أمتهم وأحلافها الى جانبه فوعدهم انه اذا تم له الامر يردهم الى بلادهم ويكونون من جملة أوليائه وأعوانه في غربي الفرات . واتصل طنين هذا الوعد بهؤلاء المتنبئين فهتفوا به إلى اخوانهم في اليهودية وحركوهم الى الفتنة والعصيان ووافق ذلك غرض المصريين وأشياعهم ملوك صور وصيداء وادوم وموآب وبني عمون فتغلب حزب الفتنة على حزب ارميا حزب السلام والخضوع للبابليين

ولا يبعد ان حزب نبوخذ نصر كتبوا اليه بحركة الافكار هذه واطلعوه على مايدور من التراسل بين المسبيين واخوانهم في اليهودية وبين هؤلاء وبين المصريين وأحزابهم أيضاً وان نبوخذ نصر بحث فوجد مجالا للظن في ابنه فسجنه ومازال في السجن الى أن توفى ابوه ثم وجه نبوخذ نصر بأسه على اليهودية ومدن فينيقية اما اورشليم فاستمرت سنتين تحت الحصار واما صور العظيمة فقالوا انها لم تؤخذ إلا بعد حصار ثلاث عشرة سنة وبسقوطها دانت له البلاد غربي الفرات من كركميش الى العريش وأصبحت كلها ولايات كلدانية ليس فيها لأمة ولا لمدينة استقلال أصلا ولا شبه استقلال

ويهمني في مقالتي هذا ان أسأل لماذا يا ترى تشدد نبوخذ نصر كل هذا التشدد على صور حتى بقي على حصارها ثلاث عشرة سنة ألمجرد الطمع بما كان فيها من الغنى والنفائس ما اظن . فان نبوخذ نصر كان يعلم ما بين صور وقرطاجنة من أواصر القربى والعلائق الخاصة وكان يعلم ان الصوريين لا يسلمون اليه مدينتهم قبل أن تنقل مراكبهم كل مافيها

من أموالهم ونفائسهم الى قرطاجنة حيث لا تصل يده الى شيء منها . وكانوا مع ذلك لا يترددون ان يفتدوا منه مدينتهم بالاموال الطائلة فيما لو أراد بشرط ان يتركهم على ما كانوا عليه من استقلالهم في مدينتهم وتجاراتهم فتشدده في الحصار وتشددهم في الدفاع كان اذن لغير مجرد النهب والسلب على ما قدير عم وان كان يصح ان يكون من جملة الاسباب ايضاً

والسبب الرئيسي على ما أرى هو ان نبوخذ نصر كان ملك مدينة تجارية وشعب اشتهروا بالتجارة من قديم الزمان وزاحموا فيها غيرهم من الأمم فلذلك لم يرض من الصوريين أن يفتدوا منه مدينتهم بالمال والجزية السنوية وتبقى مدينتهم سيدة التجارة تفتح أبوابها لمن تشاء وتغلقها في وجه من تشاء على عادتها بل أراد أن تكون بابل هي سيدة التجارة ومركزها وان تكون صور ميناء لها لا تعارض تجارتها ولا تجارها على ما هي عليه كانتون والاسكندرية وغيرهما من مدن التجارة في الشرق بالنظر الى مدن اوروبا التجارية في الوقت الحاضر وهذا ما كان يأباه الصوريون ويرونه موتاً لتجارتهم الواسعة وبالتالي موتاً لعظمتهم وغناهم ولذلك اشتد دفاعهم وطالت مدته كما أسلفنا واشتد صبر نبوخذ نصر وعزيمته حتى كان له الفوز اخيراً . فتم له ما أراد واصبحت صور فرضة لبابل ولتجار بابل يحملون اليها ومنها تجاراتهم غير معارضين

عند متقارب نهر الفرات والدجلة على بضع ساعات الى الجنوب من مدينة بغداد الحالية على عدوة الفرات كان موقع مدينة بابل عاصمة شنعار او بلاد الكلدان . وهي بلاد جيدة الهواء والماء والتربة وتكاد تكون من اخصب بقاع الدنيا فان غلة المد المزروع من الحنطة لا تنقص عن مئة ضعف وقد تبلغ الاربعماية . ومساحتها لا تقل عن اربعين الف ميل مربع كان الفرات والدجلة يسقيان كل شبر من الارض فيها . والى الشمال الغربي من شنعار ارض الجزيرة وهي اكبر منها مساحة وفيها بقاع لا تقل عنها خصباً والى شرقيها مملكة ايران الحالية والى غربيها صحراء السماوة حتى تبلغ سوريا وشطوط المتوسط

والناظر الى الخارطة يرى الفرات والدجلة اقرب طريقين واسهلهما للتجارة يصلانها أي بابل بالبلدان المجاورة الى مسافة مئات من الاميال شمالاً وشمالاً غربياً واما الى الجنوب فيصلانها بخليج فارس فخليج عمان فبحر الهند والعرب ثم باب المندب والبحر الاحمر والمتأمل ايضاً يرى كل طرق البلاد الى الشرق والغرب والشمال والجنوب تنصب اليها او تتفرع منها . وبالاجمال يقال ان موقعها كان في قلب الممالك القديمة ونقطتها من احسن النقط التجارية في ذلك الحين . وقيل ان الذين أسسوها انما اسسوها ابتداء للتجارة فلم تلبث ان صارت اعظم مدن الكلدان ومركزاً الدين والادب ايضاً شأن كل المراكز

التجارية المهمة في الاعصر الخالية . ومضى على تأسيسها نحو من ثلاثة آلاف سنة وهي مركز دين وأدب وتجارة لايضاهيها في ذلك مدينة من جميع مدن آسيا من المتوسط إلى اطراف خراسان وبلاد السند غرباً وشرقا ومن البحر الاسود الى سواحل حضرموت شمالا وجنوباً . وقد اشتهر أهلها بالصناعة والتجارة شهرة لاتقل عن شهرة الصوريين والصيدونيين وغيرهم من الامم الفينيقية المعروفة والمشهورة

لما قام نبوخذ نصر الكبير وكان يعلم بالمدينته من حسن الموقع التجاري ويعلم ايضاً ما للتجارة من الدخل في عظمة الملوك والممالك توجهت خواطره لجعلها مركز تجارة العالم. وكان فرعون نخو معاصرهُ قد حول طريق تجارة الهند والبلاد العربية من ايلة الى السويس فأراد هو ان يصرف هذا الطريق الى بابل . ولما رأى ان ذلك لايتم له على ما يريد إلا باخضاع العربية واقامة المستعمرات التجارية الكلدانية فيها وجه غزواته الى ارض البحرين وعمان فاخضعهما لسلطته وأقام فيهما المستعمرات التجارية لقومه وهم المعروفون بالنبط فغصت البلدان بأهل سواد العراق ومازالوا هم الغالبون على ارض البحرين ومعظم أهلهِ منهم الى بدء التاريخ المسيحي

ووجه ايضاً غاراته الى نجد والحجاز وممالك حاصور فاخضع جميع البلاد لسطوته من الابلة شرقاً الى ايلة غرباً ومن ايلة شمالا الى المهجم جنوباً والمهجم مدينة على وادي ممرد غربي صنعاء عاصمة اليمن واحتل النقط التجارية على البحر الاحمر مابين هاتين المدينتين اعني ايلة والمهجم فتوارد اليها تجار بلاده الانباط وانتشروا في البلاد وسكنوا هناك واختلطوا بتجار العرب وبقي لهم بينهم النفوذ الاول الى ماقبل أيام بمبيوس القائد الروماني الشهير بعقد او بعض عقود من السنين

ولنرجع الآن الى الادوميين فانهم كانوا في اول ماغزا نبوخذ نصر اليهودية يملكون طريق التجارة من ايلة الى الخليج الفارسي فلما غزا ابناء عمهم وافتتح عاصمتهم وخرب بلادهم وسبى عظماءهم وقتل مقاتلتهم ولم يترك في البلاد إلا المستضعفين والمساكين من اهل الفلاحة والزراعة شمتوا بمصيبتهم وحدثوا أنفسهم بضم اليهودية الى املاكهم ولم يعلموا ماكانت الايام وتدابير نبوخذ نصر تعده لهم . وفيما هم في شماتتهم وأحلامهم بضم بلاد اليهودية الى بلادهم اذا بجنود الكلدان واعلامهم تزحف على العربية جنوباً وغرباً فدوخوا نجد والحجاز واستلحموا بني عدنان حتى كادوا يفنونهم فتهاربوا منهم في جميع الجهات الى حضوراء وتهامه وجنوبي اليمن واتبعهم الكلدانيون وغطت خيولهم ورجالهم البلاد من الابلة الى ايلة . فاين ذهب الادوميون؟ لاشك انهم تهاربوا من امام الكلدانيين

الى جهات عاصمتهم سالع او البتراء فلما نزلت جنود الكلدان عليها أصابهم ما أصاب اليهود اي هرب اهل القرى والمزارع وكثيرون من اللاجئين من الاطراف الى الامم المجاورة وبقي من بقي في المدينة تحت الحصار وصبروا على شدته مدة ثم لما لم يروا بداً من التسليم سلموا للمنتصر فقتل من قتل وسبي من سبي وابقى من ابقى اما المدينة فلم يفعل بها ما فعله بأورشليم من الهدم والتحريق بل ابقى عليها وجعلها محطة لقوافل عاصمته فانتقل اليها كثير من التجار ان لم يكن هو نفاهم وجعل على المدينة والياً من قبله فصارت مدينة بابلية أي النفوذ والسيادة فيها للا نباط وان كان أهلها خليطاً من الفريقين اعني الادوميين والبابليين ومازالت كذلك كل أيام نبوخذ نصر وأيام خلفائه من ملوك بابل الى ان قامت الدولة الفارسية وورثت ممالك الكلدان ومدن تجارتهم فكانت من جملتها مدينة سالع ولم يتعرض الفرس لهم بشيء وتركوهم على لغتهم وتجارتهم واكتفوا منهم بالخضوع والجزية ولضعف العدنانيين وممالك حاصور بما قتل منهم نبوخذ نصر اصبحت البلاد المجاورة لسالع تبعاً لها ومازالت تتقوى سنة بعد سنة لما لها من المنعة الطبيعية وبما كان يتدفق اليها من غنى التجارة كل ايام دولة الفرس الى ان قامت دولة اليونان فاذا بها مدينة قوية غنية ذات نفوذ في الحجاز ونجد الى خليج فارس ومن ايله الى جنوبي جدة على ساحل البحر الاحمر وبعبارة اخرى اذا بها مدينة نبطية يلتف حولها كل النقط التجارية في الحجاز وتهامة ونجد والبلاد التي كان دوخها نبوخذ نصر تأميناً للتجارة بين عاصمته وبين شواطىء البحر المتوسط والبحر الاحمر عن طريق شمالي العربية . فهذا هو أصل النبطيين في البتراء وايلة الذين ذكرهم لنا التاريخ عند اول قيام الدولة اليونانية . وقد اعتمدت على الاختصار والاجمال في حروب نبوخذ نصر مع العرب لان الكلام طال عن حروبه في اليهودية

كنت أقدر أني أنهي هذه المقالة في العدد الماضي من المقتطف ولكن الكلام تغلغل بي الى اكثر ماقصدت اولا فاستهوتني حروب نبوخذ نصر في اليهودية الى ذكر مسائل كثيرة رأيتها تستنتج من كتابات ارميا النبي التي راجعتها في اثناء كتابتي القطعة المارة . وقد راجعتها لا لانها كتابات مقدسة فقط بل لانها ايضاً كتابات رجل معاصر فينبغي الاعتماد عليها والوثوق بها كما يعتمد على الآثار المخطوطة في الاجر البابلي بل هي من بعض الوجوه احرى بالوثوق من كتابات الاجر التي سطرها ملك بابل عن نفسه او سطرها له قوم من مؤرخيه لان هؤلاء كانوا يتزلفون الى مرضاته باعظام شأنه والاطراء له على ماأتى به سواء كان ماأتى به يستحق الاطراء او لا يستحقه على حين ان النبي ارميا لم يدفعه الى

كتابة ما كتبه من اخبار الملك شيء من هذا ولذلك هي كما قلنا احرى بالوثوق من كتابات المعاصرين من اهل بابل أيًّا كانوا ومهما كانت صفتهم

كانت بابل في أيام عظمتها الاولى متقدمة على نينوى فلما تقدمتها نينوى عظم عليها ذلك وحاول ملوكها أو ولاتها او اهلها مراراً ان يرجعوا بها الى سابق عهدها من العظمة والسودد فلم يفلحوا الى ان قام نبوبلاسر فاستغنم فرصة انحطاط الاشوريين وحالف الماديين عليهم على ان يكون هو وارث عز اشور وولاياتها في الجزيرة العراقية وجميع البلاد غربي الفرات بل في مصر وبلاد العرب ايضاً فترجع بذلك بابل الى عزها ومكانتها الاولى قبل ان بلغت نينوى ما بلغته في ايام ملوكها العظام الذين كانوا من كبار قادة العصور الخالية

فلما كانت موقعة كركميش وانتصر نبوخذ نصر ذلك الانتصار العظيم على فرعون نخو وجيوشه رأى في انتصاره ما يحقق له تلك الاماني التي كانت تجول في خاطر ابيه فشمر لتحقيقها وما زال يحارب حتى رأى عاصمته مدينة العلم والغنى والدين والسلطة وبعبارة اخرى اعظم مدينة في تلك الايام فانه اخضع لسطوتها الجزيرة العراقية والديار الشامية من كركميش الى غزة بما فيه بادية الشام من الابلة الى ايلة وجعلها كلها ولايات بابلية تدين بطاعته وتؤدي اليه الجزية

وحارب العرب ايضاً في بلادهم فوطىء نجداً والحجاز واستاحم اهلها من العرب العدنانيين ودوخ تهامة واليمن وجعلها من ولاياته واسكن قومه من تجار البابليين والكلدان في قلب اليمن في مخلاف جهران وحقل قتاب وفي اكثر الفرض البحرية من المهجم الى ايلة فضلا عن انه اخضع عمان وارض البحرين . وكانت آخر بلاد حاربها مصر فتغلب على اهلها واذلهم لسطوته ورجع من هناك بالاسلاب والغنائم الكثيرة

ومما هو محقق لا يرتاب فيه انه حارب الادوميين وخرب جبلهم سعير . وقد مرَّ بنا اشارة النبيين ارميا وحزقيال الى الادوميين وما توعدهم به من الخراب والدمار عن يد نبوخذ نصر . فتم هذا الوعيد وكانت جبال عيسو خراباً وميراثه لذئاب البرية في ايام ملاخي (انظر هذا السفر الاصحاح الاول)

لم تطل ايام نبوخذ نصر بعد ان دوخ مصر حتى مضى في سبيله ولكن لم يقم بعده مثله على بابل وربما لم يقم قبله من هو اعظم منه إلا ان يكون الملك حمورابي

وكذلك لم تطل مدة الدولة البابلية بعد وفاته إلا نحواً من ثلاثين سنة . غزا الفرس بعدها بابل تحت قيادة كورش فافتتحوا المدينة وافتتحوا بافتتاحها كل الولايات البابلية التي كانت لنبوخذ نصر لان هذه جميعها خضعت للفرس من غير ان يرمي عليهم سهم واحد في

كل عبر النهر حتى الصوريون كانوا يأتون بخشب الارز من لبنان حسب إذن كورش ملك فارس لهم (انظر سفر عزرا الاصحاح الثالث)

وبقيت لغة الدواوين في الدولة الفارسية على عهدها في ايام نبوخذ نصر أي اللغة الارامية فكانت القيود والسجلات والمعاريض تكتب فيها وتترجم اليها ايضاً. وقد ذكرنا ماذكرناه توطئة للقول ان هيئة البلاد في فلسطين وشمالي العربية لم تتغير في ايام الدولة الفارسية عما كانت عليه في ايام نبوخذ نصر بل بقيت على حالها نسخة واحدة الى ان قامت دولة اليونان

ولما قام الاسكندر الكبير وغزا مملكة فارس خضعت له أمم سوريا وفلسطين التي كانت خاضعة للفرس لم تقم امة منها في وجهه إلا الصوريون ثم مات الاسكندر واقتسم قواده البلاد. وكان من جملتهم انتيغونوس وابنه ديمتريوس وعلى عهد هذين نحو ٣١٦ ق. م ذكرت مدينة البتراء وكانت حينئذ مدينة قوية ذات غنى وتجارة تتجاسر دون غيرها من المدن على مقاومة ديمتريوس بن انتيغونوس وكان اهلوها يعرفون بالنبطيين وكانوا متميزين عمن سواهم من بقية الامم اعني الادوميين والموابيين والعمونيين والعرب واليهود. وواضح مما ذكرناه سابقاً انهم أي النبطيين لم يكونوا في البلاد ايام الفتح البابلي ولا استجدوا فيها على عهد الدولة الفارسية فلم يبق لنا إلا القول انهم نزلوا البتراء في أيام نبوخذ نصر وانهم جاءوا من بابل وجوارها لان لغتهم كانت اللغة الارامية

ولننظر الآن فيما يؤيد هذا المدعى ولابد في تأييده من الاستناد على سند تاريخي وهذا السند لانعدمه في اسفار المكابيين فان السفر الاول من هذه الاسفار يذكر لنا الانباط في ايام يهوذا المكابي واليك ماجاء لصاحب هذا السفر

قال في الاصحاح الخامس والعدد ٢٤ و ٢٥ مانصه

واما يهوذا المكابي ويوناثان اخوه فعبرا الاردن وسارا مسيرة ثلاثة ايام في البرية فصادفا النبطيين (النباطيين) فتلقوهما بسلام وقصوا عليهما كل ما اصاب اخوتهما في ارض جلعاد وان كثيرين منهم قد حصروا في بصرة وياصر وعليم وكسفور ومكيد وقرنايم وكلها مدن حصينة عظيمة وانهم ايضاً محصورون في سائر مدن ارض جلعاد والقوم مستعدون لمحاصرتهم غداً في الحصون والقبض عليهم وابادتهم جميعاً في يوم واحد — الى ان يقول فارسل يهوذا رجالا يكشفون امر الجيش فاخبروه قائلين ان جميع الامم التي حولنا قد انضمت اليهم وهم جيش عظيم جداً وقد استأجروا العرب يظاهرونهم ونزلوا في عبر الوادي

وجاء أيضاً في الاصحاح ٩ والعدد ٣٣ — ٣٥ وبلغ ذلك يوناثان وسمعان اخاه وجميع من معه فعبروا الى برية تقوع ونزلوا على ماء جب اسفار وارسل يوناثان يوحنا أخاه

بجماعة تحت قيادته يسأل النبطيين اولياءهُ ان يعيروهم عدتهم الوافرة

والذي يظهر من الإعداد التي ذكرناها . اولا ان النبطيين كانوا اولياء ليهوذا المكابي واخوته . ثانياً انهم أمة غير العرب وغير الموابيين والعمونيين والادوميين . ثالثاً ان مركزهم كان يبعد ثلاثة ايام في البرية شرقي الاردن من حيث عبر المكابي بقرب اريحا. رابعاً ان قد كان عندهم عدة وافرة يمكنهم الاستغناء عنها واعارتها . وكل ذلك يشير الى انهم كانوا في البتراء قرب بصرة او باصر لان هذه المسافة أي ثلاثة أيام لا تنطبق على مدينة غير البتراء ويشير ايضاً الى انهم كانوا تجاراً لان عندهم كثيراً من الاسلحة يستطيعون ان يعيروها

ومن يراجع سفر المكابيين في الاصحاح الخامس يرى ان اول مدينة وصلها يهوذا واخوه بعد ان تركها اصحابهم النبطيون كانت مدينة باصر او بصرة ثم انصرفا من هناك الى المصفاة وهذا لايدع مجالا للشك ان النبطيين كانوا في البتراء لان باصر او بصرة اقرب مدينة اليها اذا توجه اليها جهة البرية

ثم يظهر لنا من مراجعة تاريخ يوسيفوس انه كان يعتمد على سفر المكابيين وقد تابعه حرفاً بحرف ومآل هذه المتابعة انه كان يعرف النبطيين المشار اليهم وانهم قوم متميزون عن الادوميين والعرب والعمونيين وكتاباته صريحة ان البتراء كانت مدينتهم وانهم مازالوا على استقلالهم عن العرب الى أيام اسكندر جانيوس بن ارستو بولوس بن يوحنا هركانوس ابن سمعان اخي يوناتان ويهوذا المكابي فانه بعد وفاة هذا الملك اليهودي ورد اول ذكر يفهم منه ان الانباط او النبطيين في البتراء خضعوا للعرب وكان لارمياس ملكهم قصر فيها أي في البتراء . ومن ذلك الحين فما بعده اخذ ملوك العرب الاريتاسيون (أي الذين اسماء ملوكهم اغلبها اريتاس او حارثة) يلقبون ملوك النبط ويطلق عليهم تارة لقب ملك العرب وأخرى ملك النبط ومع ذلك كان ظاهراً جلياً ان الجنسية مختلفة بين العرب والنبط وان كان الملك واحداً . وما زال الامر كذلك الى ان انقرض ملك هؤلاء من البتراء وجعلت ولاية رومانية سنة ١٠٥ بعد المسيح

ماذا يعرف مؤرخو العرب عن النبط

يعرف العرب ومؤرخو العرب ان النبط غير العرب وانهم كانوا يسكنون أرض البحرين وسواد العراق وأن كان منهم قوم يعرفون بانباط الشام وانهم كانوا في عمان ايضاً وفي قلب البلاد اليمنية في حقل قتاب واعالي جهران اما في عمان فاستعربوا وأما في أرض البحرين فمع ان العرب أزالوهم من هناك وسكنوا مكانهم في هجر البحرين وذلك في بدء التاريخ المسيحي

او قبله بمدة غير معروفة إلا انها ليست طويلة عاد الانباط فكثروا في أرض البحرين حتى غلبت نبطيتهم على عروبية العرب وعليه المثل المشهور المتواتر عند العرب اهل عمان نبط استعربوا وأهل البحرين عرب استنبطوا . وفي اول الفتوحات الاسلامية كانوا يسمون الموالي ايضاً وكانوا في سواد العراق من البصرة الى الكوفة

وكان اكثر اصحاب المصانع وارباب التجارة هناك منهم واشتهر بعضهم بالبخل وقرض الاموال بالرباء لرؤساء القبائل العربية واشتغل بعضهم بالعلم والفقه وكان منهم كثيرون من علماء النحو واللغة واستقضى منهم جماعة منهم نوح بن دراج . وكانوا يعيرون بجهل انسابهم وعليه يروى الحديث عن الامام عمر بن الخطاب لا تكونوا كنبط السواد اذا سئل احدهم عن نسبه قال انا من بلد كذا. وبالاجمال نقول ان العرب يعرفون الانباط معرفة تامة لا اشتباه فيها منذ اوائل التاريخ المسيحي الى اليوم وليس منهم يشبّه عليه الفرق بينهم وبين العرب . لكن ليس من ينكر ايضاً ان الانباط هم والعرب من الفصيلة السامية فان العرب يرجعون الى سام عن طريق يقطان بن عابر بن شالح بن ارفكشاد والنبط يرجعون اليه رأساً فانهم اولاد أرام بن سام وقد اختلط هؤلاء الاراميون من عهد بعيد جداً بالعرب وامتزجوا بهم في الديار البابلية فانقلب العرب هناك انباطاً وانقلب النبط في شبه جزيرة العرب عرباً . قيل ويرجح هذا القول ان الكلدان في عهد نبوخذ نصر كانوا عرباً سكنوا بلاد بابل ويظن البعض ان لفظ الكلدان محرف عن بني خالد قبيلة لا تزال عرباً الى حد هذه الساعة في تلك الجهات قرب الحفير وما يجاوره

عود على بدء

قام نبوخذ نصر على عرش بابل نحو سنة ٦٠٧ قبل المسيح فوجه غزواته الى الحجاز ونجد واستاخم العدنانيين هناك حتى كادوا يفنون وضرب الادوميين وخرب جبلهم سعير واخذ منهم مراكزهم التجارية التي كانوا اقاموها بين ايلة وخليج فارس وكان قبل ذلك حارب ابناء عمهم في اليهودية وأجلا قسماً كبيراً منهم الى بلاد بابل وهرب كثيرون ممن بقي الى ارض مصر فقل الساكن في بلادهم وكانت أخصب بالطبع من اكثر أراضي ادوم فانتقل كثيرون من الادوميين وسكنوا في جنوبي يهوذا الى مدينة حبرون المعروفة اليوم بالخليل ولما اشتد عليهم نبوخذ نصر وأخذ مدينتهم سالع (البتراء) وما سواها من المراكز التجارية في تيماء والحجر تهارب كثيرون من وجهه وسكنوا في اليهودية ايضاً وخلت بلادهم من كثيرين منهم . وقد ألمحنا ان نبوخذ نصر كان تاجراً وملك قوم تجار وانه قصد

ان يحول وحول طريق التجارة عن ايلة والسويس الى عاصمة بلاده . فمن المستحيل اذن ان يخرب المراكز التجارية بين خليج فارس وشواطىء المتوسط فلا بد إذن من ان يكون بعد حروبه في شمالي العربية قد اسكن هذه المراكز اقواماً لا يخاف عاديتهم ومن غير العرب الذين حاربهم ايضاً وكاد يفنيهم وليس من يقوم بهذه المهمة قياماً احسن من قومه التجار من بابل وجوارها فجاءوا واستوطنوا تلك الجهات ومن جملتها الحجر وتيماء والبتراء وغير هذه من المراكز التجارية البرية وعلى سواحل البحر الاحمر وخالطهم في جميع هذه المراكز ضعفاء الادوميين اصحابها الاولين وبعض العرب ولعل الادوميين كانوا اكثر عدداً أو يماثلون النبط إلا ان العز والصولة كانا للنبط لان الدولة منهم والتجارة في ايديهم . وما زالوا كذلك كل ايام نبوخذ نصر وأيام خلفائه الى ان قامت الدولة الفارسية فلم تتعرض لهم وتركتهم وشأنهم وحكمهم حكم غيرهم من الامم الخاضعة لهم . بل كان الفرس من جهة خيراً لهؤلاء المستعمرة من النبط من نفس دولتهم البابلية لان الفرس لم يكونوا تجاراً فلم يزاحموهم على تجارتهم وضعفت تجارة بابل بما كان من انتقال دار الملك عنها فقلت مزاحمة اهلها لهم واصبح قسم عظيم من التجارة ينقل رأساً الى محطاتهم التجارية من غير ان يمر على بابل اي رأساً من خليج فارس فكثر غناهم مع الايام وعلى نسبة ذلك زاد من قوتهم واصبح العرب حملة لتجارتهم ومصرفين بأمرهم . وانتقل اليهم عز الادوميين وسلطتهم واصبح كثير من قبائل العرب ينفرون على صراخهم اذا استصرخوهم وبقوا على ذلك نحواً من ٧٠٠ سنة ولما احتك بهم القائد اليوناني انتيغونوس وابنه ديمتريوس بعد موت الاسكندر وجدهم على ما وجدهم عليه من القوة ووجد ألوفاً من قبائل العرب حواليهم ينفرون معهم اذا استنفروهم وبقوا على عزهم هذا حقبة من الدهر إلا ان الايام لا تدوم على حالة واحدة فان البطالسة قاموا في مصر واصبحت تراثاً لهم فوجهوا عنايتهم الى البلاد فازدادت ساكناً وازدادت علماً وصناعة وتجارة فاصبح كثير من موانيء البحر الاحمر في ايديهم وغيروا خطة التجارة شيئاً عما كانت عليه فتحول قسم كبير من التجارة عن البتراء وكذلك اضطربت الاحوال في بابل والجزيرة وخليج فارس وكثرت الحروب والخاصمات هناك وقامت سلوقية تزاحم بابل على التجارة فضعف شأنها نوعاً عما كان عليه قبلا . وفوق ذلك انشأ ملوك سوريا في انطاكية خطاً تجارياً من العراق الى مدينتهم فقلل هذا شيئاً من اهمية البتراء وقلل غناها على نسبة ذلك فقلت قوتها . وعادت العرب فكثرت في البلاد حولها في بلاد مواب وبني عمون وما بين غزة وجبال الشراة والظاهر ان كثيرين من عرب اليمن وحضرموت من قبائل قضاعة هاجروا في بداية المئة الاخيرة قبل المسيح الى جهات

فلسطين وسوريا فاصبح لهم شأن وشوكة واجتمعت حولهم كلمة العرب لما اعتاده العدنانيون من الانقياد اليهم فاضف ذلك من سطوة البتراء ونفوذ تجارها ورؤسائها وخالط رؤساء العرب هؤلاء اهل البتراء لانهم اهل حضارة مثلهم وعمروا قصورهم في مدينتهم فكانوا يقوون سنة بعد سنة ويكثرون واولئك باقون على ماكانوا عليه إن لم نقل انهم كانوا يضعفون وما زالوا كذلك حتى كثر العرب النبط واصبحوا ذوي السؤدد والرئاسة دونهم وانتقل اليهم الامر فاصبحوا ملوكاً عرفوا بملوك النبطيين في البتراء ولا يبعد انهم كان لهم ملك خاص قبل ان استولوا على البتراء وجعلوها عاصمة لهم في ايام اريتاس معاصر بمبيوس القائد الروماني المشهور بل لا يبعد انهم استولوا على هذه المدينة قبل زمن بمبيوس فكان لهم رئاسة وسؤدد فيها ولكن لم يكن لهم ملك على شاكلة ماكان لهم في ايام اريتاس هذا ومن جاء بعده الى ان انقرض ملكهم في سنة ١٠٥ قبل المسيح كما المعنا

وخلاصة مانختم به بحثنا هذا ان الانباط خليط من الادوميين وتجار من الكلدانيين والبابليين الذين جاءوا الى البتراء في ايام نبوخذنصر وانضم اليهم من حين الى آخر من تحضر حواليهم من العرب العدنانيين اولاد اسماعيل ثم انضاف الى هؤلاء كثيرون من مشايخ ورؤساء القحطانيين من بني قضاعة الذين هاجروا من اليمن وحضرموت في اول المئة الاولى قبل المسيح او ماقبل ذلك بمدة قصيرة . ولا يبعد ان يكون انضم اليها ايضاً كثيرون من اليهود كانوا يسقطون عليهم من حين الى آخر للتجارة تارة وللاحماء بهم تارة اخرى فان الذين سكنوا المدينة وجهات خيبر وكثروا هناك لا يستبعد عليهم ان يسكنوا في البتراء ايضاً فامتزجت كل هذه القبائل معاً في مدينة البتراء وعرفوا بالنبط إلا اني ارجح مما مر ان الدم الغالب فيهم هو دم العشيرة الآرامية عشيرة ابراهيم الخليل. ومن البتراء انتقلوا الى مكة والطائف ومنهم نشأت بيوت من اعظم بيوتات العالم كما سنبين ذلك في المستقبل ان شاء الله

قيدار وممالك حاصور

استافات نظر اصحاب الانسكلوبيديات ومعاجم الكتاب

في اثناء بحثي عن اصل الانباط في البتراء راجعت ما كتب في سفر ارميا النبي عن غزوات نبوخذنصر (او بختنصر) وهي كتابة يعتمد عليها لان النبي كان من معاصري نبوخذنصر ومن ثم فالوارد عنه في سفره هو من اصح وأثبت ما جاء عن هذا الملك لايدانيه في الصحة شيء الا ما ورد في الاجرّ البابلي مما كتبه بختنصر نفسه او احد معاصريه فوجدت ان من جملة الامم التي حاربها بختنصر القيداريين وممالك حاصور . اما القيداريون فمن وصفهم لا يشك محقق انه يعني بهم العرب العدنانيون في الحجاز وشمالي العربية . واما ممالك حاصور فلا يزال فيها رأي لباحث

راجعت الانسكلوبيديا البريطانية فلم أر فيها أدنى اشارة الى هذه الممالك ومثلها الانسكلوبيديا الاميركانية فقلت دعني انظر في تفسير الكتاب للعلامة بوتلر وهو من احدث كتب التفاسير ومن اشهرها فنظرت فلم اجد فيه ما يشفي فانقلبت الى معاجم الكتاب فراجعت احدثها عهداً واشهرها فلم أر فيها ما يزيد عما في غيرها مما اطلعت عليه . الا ان العلامة هيستن في معجمه الشهير المطبوع سنة ١٨٩٨ — ١٩٠٢ اشار الى رأي العلامة كونور فقال في آخر ما ذكره عن لفظ حاصور نقلا عن العلامة الموما إليه انها مكان غير معروف في بلاد العرب يذكر مع قيدار وان نبوخذنصر حارب اهله . والاشارة في غاية الاختصار لا تزيد عن السطرين وقد ذكرت معناها على ما بقي في ذهني لا ترجمتها الحرفية فمن شاء فليراجع معجم هذا العلامة في باب حاصور

كان في ذهني من قبل ان بلاد اليمن من جملة البلدان التي حاربها نبوخذ نصر فحدست ان ممالك حاصور هذه هي بلاد اليمن او قسم منها لان اشارة ارميا النبي — اهربوا انهزموا جداً تعمقوا في السكن يا سكان حاصور الخ — لا تنطبق على حاصور مدينة يابين بقرب بحيرة الحولة فانقلبت الى كتب التاريخ العربية ابحث عما يقوم دليلا على صحة ما حدسته فراجعت العلامة ابن خلدون والمسعودي فرأيتهما في حروب نبوخذ نصر في بلاد العرب يقرنان ذكر بني حضورا بالعرب العدنانيين كما يقرن ارميا النبي ممالك حاصور بالقيداريين والمستنتج من ذلك لا يكاد يُشكُّ به على ما ارى اي ان بني حضورا وممالك حاصور هما اسمان لمسمى واحد كما ان قيدار والعرب العدنانيين اسمان ايضاً والمسمى واحد ولاسيما اذا

اعتبرت المشابهة اللفظية الواضحة بين حاصور و حضور. فبقي عليَّ تحقيق موقع حضور او حضورا في اي نقطة هو من البلاد العربية

فقلت اراجع الهمذاني صاحب وصف جزيرة العرب فلعله يذكر شيئاً عن ذلك فراجعته فاذا به يذكر ما احِبُّ ان يذكره .واليك النقول الآتية عن كل من هؤلاء الائمة الاعلام

عن العلامة ابن خلدون

قال هذا العلامة في الجزء الثاني من تاريخه المشهور طبعة بولاق صفحة ١٦٠ وبختنصر هذا الذي غزا العرب وقاتلهم واستباحهم. قال هشام بن محمد اوحى الله الى ارميا النبي يأمر بختنصر ان يفرّق العرب الذين لا اغلاق لبيوتهم ويستبيحهم بالقتل . قال فوثب بختنصر على من وجده ببلاده من العرب للغيرة فحبسهم ونادى بالغزو وجاءت منهم طوائف مستسلمين فقبلهم وانزلهم بالانبار والحيرة. وقال غير هشام ان بختنصر غزا العرب بالجزيرة وما بين ايلة والابلة وملأها عليهم خيلا ورجالا ولقيه بنو عدنان فهزمهم الى حضورا واستلحمهم اجمعين. وقال وجه ٢٣٧ من الجزء المذكور . يقال في مبدإ كونهم هناك ان بختنصر لما سلطه الله على العرب — قتل اهل الوبر بناحية عدن اليمن نبيهم شعيب بن ذي مهدم — فاوحى الله الى ارميا بن حزقيا وبرخيا ان يسيرا بختنصر الى العرب الذين لا اغلاق لبيوتهم وان يقتل ولا يستحي ويستلحمهم اجمعين ولا يبقي منهم اثراً — وسار الى العرب وقد نظم ما بين ايلة والابلة خيلا ورجلا وتسامع العرب باقطار جزيرتهم واجتمعوا للقائه فهزم عدنان اولاً ثم استلحم الباقين ورجع الى بابل وجمع السبايا فانزلهم بالانبار ثم خالطهم بعد ذلك النبطة

وقال ايضاً وجه ٢٣٩ من الجزء المار ذكره. وغزا بختنصر العرب واستلحمهم وهلك عدنان وبقيت بلاد العرب خراباً. قال السهيلي وكان رجوع معدّ الى الحجاز بعد ما دفع الله بأسه عن العرب ورجعت بقاياهم التي كانت بالشواهق الى محالاتهم بعد ان دوخ بختنصر بلادهم وخرب معمورهم واستأصل حضورا واهل الرسّ التي كانت سطوة الله بالعرب من اجلهم

وقال وجه ٢٤٣ من الجزء المذكور . ومن كعب بن زيد الجمهور ويلقب كعب الظلم ابناء سبأ الاصغر بن كعب واليه ينتهي نسب ملوكهم التبابعة ومن زيد الجمهور بنو حضور ابن عدي بن مالك بن زيد وقد مر ذكرهم وتقول اليمن ان منهم كان شعيب بن ذي مهدم النبي الذي قتله قومه ففزاهم بختنصر فقتلهم . وقيل هو حضور بن قحطان الذي اسمه في التوراة يقطان ومنهم ايضاً بنو ميتم وبنو إحالة ابني سعد بن عوف بن عدي بن مالك اخي ذي رُعين . وعوف هذا اخو حضور واخوه أحاظة وميتم بنو حراز بن سعد

عن العلامة المسعودي

وقال العلامة المسعودي في كتابه مروج الذهب الجزء الاول وجه ٢٢٦ وكانت (اي بنو حضورا) امة عظيمة ذات بطش وشدة فغلبت على كثير من الارض والممالك وقد تنازع الناس فيهم فمنهم من الحقهم بمن ذكرنا من العرب البائدة ممن سمينا ومنهم من رأى انهم من ولد يافث بن نوح وقيل في انسابهم غير ما ذكر من الوجوه . وقد كان بعث الله عز وجل اليهم شعيب بن ذي مهدم بن حضورا نبياً ناهياً عما كانوا عليه وهذا غير شعيب بن نوفل ولما بعث الى حضورا واشتد كفرهم جدَّ نبيهم شعيب بن ذي مهدم في دعائهم وخوفهم وتوعدهم فقتلوه فاوحى الله الى نبي كان في عصره وهو برخيا وكان من سبط يهوذا — ان يأتي بختنصر وكان بالشام — فيأمره ان يغزو العرب الذين لا اغلاق لبيوتهم فلما اتى برخيا ذلك الملك قال له الملك صدقت لي سبع ليال أومر في نومي بما ذكرت وانادي بمجيئك الي وأبشَّر ويقال لي ما امرتني به وانا انتصر للنبي المقتول المظلوم . فسار اليهم في جنوده وغشي ديارهم في عساكره وصاح بهم صائح من السماء وقد استعدوا لحربه من حيث عم الصوت جميعهم . فلما سمعوا ذلك علموا ان الامر قد نزل بهم فانفضَّت جنودهم وتفرَّقت جموعهم وولَّت كتائبهم واخذهم السيف فحصدوا اجمعين

عن العلامة الهمداني

جاء لهذا العلامة في كتابه وصف جزيرة العرب طبع ليدن سنة ١٨٨٤ وجه ١٠٦ ما نصه قال

مخلاف حضور وهو حضور بن عدي بن مالك من ولده شعيب النبي بن مهدم بن ذي مهدم بن المقدم بن حضور عليه السلام وهو الذي قتله قومه ويقال قتله اهل حضورى وعربايا وكان بُعِث اليهم. فسافلة حضور يناغ وشمّ وماضخ وصابح والاغيوم وبَرْيش ومنهم بحزا وعَلسان فهذه سافلة حضور. وبحضور الصيد وهم يتهمدنون ويقال انهم من حمير وهم غير صيد همدان. وعالية حضور واضع والمَعْلَل وحقل سهمان . انتهى

ترى مما ذكره الهمداني صراحة ان هذا المخلاف هو في منتصف بلاد اليمن على مقربة من صنعاء وانه نسب الى حضور بن عدي بن مالك وابن خلدون يصرح ان حضور هو من نسل زيد الجمهور الذي ينتهي اليه نسب التبابعة وعليه فبنو حضورا كانوا التبابعة في ايام نبوخذنصر وكان لهم ملك اليمن وتهامة معاً . وهذا مما تناسبه عبارة المسعودي — اي

انهم كانوا امة ذات بطش وشدة وقد غلبت على كثير من الممالك

ثم اذا صدقنا قول اهل اليمن عن انفسهم فى تواريخهم او تقاليدهم علمنا ان شعيب بن ذي مهدم كان من امراء آل حضور فان هذه الاضافة — اي ذي مهدم — تشعر بذلك ولها نظائر عندهم كذي الكلاع وذي يزن وذي شحر الخ فانها كلها اسماء امكنة أضيف اليها كما صرح المسعودي بذلك . وشبيه بها عبارة مؤرخي المولدين فى قولهم مثلا صاحب صور وصاحب طرابلس وصاحب الشوبك وصاحب سيجر وامثال ذلك كثيرة ولعلهم اتبعوا اصطلاح من سبقهم انما ابدلوا ذي بمعناها اعني صاحب . وعليه فمهدم اسم البلد التي كان ابوه اميراً عليها . والمهدم ولا شك يراد بها مدينة المهجم الحالية وهي من امهات مدن تهامة اما المشابهة اللفظية فواضحة فان الجيم والدال يقرب لفظ احدهما من الآخر بل كثيرون لا يلفظون الجيم الا دالا فاذا قلت لهم قولوا مهجم قالوا مهدم . واما المشابهة في الصفة فابن خلدون يقول كما نقلنا عنه ان اهل الوبر فى ناحية عدن اليمن قتلوا نبيهم شعيب ابن ذي مهدم واهل تهامة كانوا ولا يزالون لحد هذه الساعة اهل وبر والمهجم من امهات مدنهم وربما كانت ايضاً عاصمتهم فى ذلك الحين فالوصف الذي ذكره ابن خلدون منطبق عليها

دعنا الآن نذكر محصَّل ماجاء عن نبوخذنصر في سفري ارميا وحزقيال وسفر الملوك الثاني اما النبيان فكانا معاصرين لنبوخذنصر واما صاحب سفر الملوك فكان بعده بقليل وربما عاصره مدة على الراجح . ثم محصل ما جاء عنه فى تواريخ العرب وتقاليدهم على ما رأيت فى النقول التي نقلنا وبعد ذلك ننظر فى مقابلة المحصلين احدهما بصاحبه فان فى الواحد ما يفسر بعض ما فى الآخر من الابهام كما سترى : —

في اواخر ملك يوشيا ملك يهوذا صعد فرعون نخو بجيوشه يقصد كركميش على الفرات شمالي حلب فاعترضه يوشيا ملك يهوذا في بقعة مجدو فاصابه الرماة بسهم فجرح جرحاً مميتاً ونقله عبيده من المركبة التي كان يحارب فيها متنكراً الى مركبته الثانية ورجعوا به الى اورشليم فمات هناك ودفن فى قبور آبائه وملَّك اليهود ابنه يهواحاز بدلا منه . الا ان فرعون نخو عاد من كركميش بعد ثلاثة اشهر ومر باورشليم فعزل يهواحاز واخذه اسيراً الى مصر ونصب مكانه اخاه الياقيم بعد ان ضمن له ما غرم به الارض من وزنات الفضة والذهب وسماه يهوياقيم

وبعد اربع سنوات من موت يوشيا كانت موقعة كركميش التقت فيها جيوش نبوخذنصر بجيوش المصريين فكانت حرباً هائلة دارت فيها الدائرة على جيوش نخو وفاز البابليون على المصريين فوزاً كبيراً فارتد هؤلاء الى بلادهم مهزومين وتعقبهم نبوخذنصر حتى جاء الى اورشليم

فلم يكن من يهوياقيم ادنى مقاومة فقيده نبوخذنصر ليذهب به الى بابل الا انه عاد فاستبقاه عاملا له وما زال يهوياقيم عبداً لنبوخذنصر ثلاث سنوات ثم عصى عليه وعاد الى موالاة المصريين الى ان مات في السنة الحادية عشرة من ملكه وملك ابنه يهوياكين بدلا منه

وفى اواخر ملك يهوياقيم جاءت جيوش البابليين الى اليهودية وبعد ثلاثة اشهر من ملك يهوياكين شدد نبوخذنصر الحصار على اورشليم فلم يعد يهوياكين يقوى على المدافعة فاستسلم هو وأمه وعبيده ورؤساؤه وخصيانه لنبوخذنصر فاخذهم الى بابل وسبى معهم سبعة آلاف من اقوياء الارض واصحاب البأس فيها فضلا عن الابطال اهل الحرب وفضلا عن الصناع من النجارين والحدادين

ولم يذكر في سفر ارميا ولا في سفر حزقيال ولا في سفر الملوك ما انسبب في عصيان يهوياقيم على ملك بابل بعد ان استعبد له ثلاث سنوات . على ان ارميا النبي يشير الى اسم القبائل العربية ددان وتيماء وبوز وكل ملوك العرب وكل ملوك اللفيف الساكنين في البرية وكل ملوك زمري وان هذه الامم كلها كانت عند موقعة كركميش او بعدها بقليل حرباً لنبوخذنصر ومن جملتهم قيدار وممالك حاصور وان نبوخذنصر كان بعد الحرب هؤلاء عن آخرهم. وهذه عبارته في شأن ممالك حاصور قال « اهربوا انهزموا جداً تعمقوا في السكن يا سكان حاصور يقول الرب لان نبوخذنصر ملك بابل قد اشار عليكم مشورة وفكر عليكم فكراً »

وجاء في سفر الملوك انه لما عصى يهوياقيم على نبوخذنصر بعد ان استعبد له ثلاث سنين ارسل الرب عليه غزاة الكلدانيين وغزاة الاراميين والعمونيين والموابيين ولم يذكر نبوخذنصر ولا جيوشه حينئذ وانما ذكره في ابتداء ملك يهوياكين فلماذا لم يأت نبوخذنصر او على الاقل لماذا لم يرسل جيوشه لحرب من عصى عليه بعد ان واثقه على الطاعة ولماذا اخر غزوه والاقتصاص منه اربع سنوات تقريباً. ثم لما تحرك نبوخذنصر وسار بجيوشه على اورشليم يقول صاحب سفر الملوك هذه العبارة يعترض بها اعتراضاً — «ولم يعد ملك مصر يخرج من ارضه لان ملك بابل اخذ من نهر مصر الى نهر الفرات كل ما كان لملك مصر» كل هذا مما يحتاج الى تفسير ولا يفسره الا حروب ملك بابل في حاصور على ما ارى فلنتقدم اذن لذكر محصل مايُفهم من النقول التي نقلناها آنفاً عن ابن خلدون والمسعودي والهمداني

يتحصل منها ان بني حضورا وهم ممالك حاصور كانوا ملوك اليمن في ذلك الحين وان عاصمتهم كانت صنعاء او مدينة أخرى بقرب صنعاء ولعلها مدينة حاز فى مخلاف حضور فان الهمداني يذكر انها مدينة قديمة وفيها آثار جاهلية وكانت تهامة تابعة لهم. ويتحصل ايضاً ان

شعيب نبي بني حضورا وابن صاحب المهجم كان من اشياع نبوخذنصر وحكمه في قومه كحكم ارميا في اليهود فلما قتله قومه من اهل الوبر في تهامة استنجد اهله او حزبه بختنصر وكان حينئذ في اليهودية وجهاتها يفكر في غزو العرب وبلاد اليمن ليلتحقها باملاكه كما فعل من سبقه من ملوك اشور وقوادها العظام فسار اليهم ليثأر منهم بدم النبي المقتول. وكان مسيره بعد ان مر باورشليم في الرابعة من ملك يهوياقيم . وهنا نقول انه لاقى من الصعوبات في غزو هذه البلاد اشدّ مما لقيه الرومان في اوائل التاريخ المسيحي في ايام اوكتافيوس قيصر ذلك لان هؤلاء لم يحتاجوا الى قطع الصحراء الشمالية لانهم ساروا بالسفن من مصر حتى بلغوا الحوراء فنزلوا عليها ومن هناك دخلوا تهامة واليمن واما هو فاضطر الى قطع الصحراء ومحاربة العدنانيين او قيدار اولا وبعد ان استلحمهم استمر على غزوته خلفهم الى تهامة وحضورا. وعليه فقد لاقى من المشقات اضعاف ما لاقاه الرومان ولاسيما ان المصريين كانوا عليه لا معه ومن اشد خصومه ايضاً ولا يبعد انهم انجدوا اهل حضورا وامدّوهم بالمال والرجال . ولا يبعد ايضاً بل هو مما يجوز لنا ترجيحه ان قد توجهت عليه غلبة او غلبات احياناً فاشيع خبر انغلابه في سوريا وفلسطين اشاع ذلك خصومه المصريون فارتد بذلك كثيرون من الشعوب عن طاعته ومن جملتهم اليهود . وهذا مما يفسر لنا سبب عصيان يهوياقيم على بختنصر بعد ان استعبد له ثلاث سنين على ضعف سياسته وتفرق قلوب اهل مملكته عنه. ويفسر لنا ايضاً ما جاء به صاحب سفر الملوك من انه لما عاد يهوياقيم فتمرد على بختنصر ارسل عليه الرب غزاة الكلدانيين والاراميين ولم يقل جيش الكلدانيين ولا بختنصر ملكهم لانه لم يكن حينئذ يستطيع ان يحضر بنفسه ولا ان يرسل اليهم جانباً كبيراً من جنوده لانه كان منهمكا بحروبه في اليمن وتهامة وكانت الحرب شديدة لا تؤذن له ان يوجه جيشاً كبيراً منظما ليقتص من اليهود فارسل من ثم شراذم غزاة فالتف عليهم قوم من الاراميين والموابيين والعمونيين اعداء اليهود وكان من هم هؤلاء الغزاة مضايقة اليهود واعناتهم بالغزو على اطراف بلادهم وقطع السابلة على تجارهم وقوافلهم الى ان يكون فرغ بختنصر من حرب العرب . ومما يستوجب الفكرة أن لم يكن بين هؤلاء الغزاة على يهوياقيم احد من الادوميين ولعل ضلعهم كان مع اليمنيين على بختنصر كما كان ضلع مَن خلفهم من الانباط مع اهل اليمن على الرومانيين

وقد استمرت هذه الحرب على ما يظهر نحواً من ثلاث سنين خرج منها بختنصر مظفراً غالباً ودانت له عند نهايتها البلاد كلها من نهر مصر الى نهر الفرات وفرغ حينئذ لحرب اليهود فلم يلبث ان استسلم اليه يهوياكين ملكهم بعد ثلاثة اشهر من الحصار كما ذكرنا

هذا ما خطر لي في التحقيق عن ممالك حاصور ولا اشك ان من يقابل كما قابلت ويراجع ما راجعته يتبين له كما تبين لي وخلاصته ان قيدار هم العرب العدنانيون وأن ممالك حاصور هم بنو حضورا تابعة اليمن في ذلك الحين وان حروب بختنصر معهم استمرت نحواً من اربع سنوات من السنة السابعة ليهوياقيم الى السنة الحادية عشرة من ملكه وهي السنة التي مات فيها . ويظهر له ايضاً ان التبابعة بني حضورا كانوا منقسمين الى حزبين حزب مع المصريين وآخر وهو حزب شعيب بن ذي مهدم مع البابليين وان هذا الانقسام والتحزب لنبوخذنصر هو الذي مكن هذا الملك البابلي من اجتياح بلادهم وايقاعه بهم حتى كاد يفنيهم مما لم يسبق للملك قبله ولم يتأت مثله لمن بعده . وقد بقي خبر هذه الغزوة لشدتها محفوظاً في تقاليد اليمن لحد هذه الساعة دون غيرها من غزوات المصريين والاشوريين والرومانيين. ومما يؤيد صحة هذه الغزوة على ما ذكرنا ايضاً وجود الانباط وهم سكان بابل في حقل جهران وحقل قناب في قلب اليمن قال الشاعر على لسان احد التبابعة

فسكنت العراق خير قومي وسكنت النبيط قرى قناب

انظر الهمداني وصف جزيرة العرب وجه ١٠٤ . وفوق كل ذي علم عليم

الاحتفال بالدستور

لقد كان لاعلان الدستور في البلاد العثمانية اعظم وقع في نفوس العثمانيين فعقدوا له حفلات باهرة في بلادهم وفي كل البلدان التي هاجروا اليها تلي فيها من الخطب والقصائد ما لو جمع لملأ مجلدات كثيرة . وقد اخترنا من ذلك خطبة وقصيدة رأيناهما من أدل ما انشيء في وصف الحالة الحاضرة . والخطبة وموضوعها « نحن والدستور » لحضرة الاستاذ جبر ضومط من أساتذة المدرسة الكلية الاميركية في بيروت

نحن والدستور

كنا منذ بضعة اسابيع بل منذ اقل من ذلك يناجي احدنا نفسه ولا اقول اصدقاءه بسوء ما صرنا اليه ويخاف على نفسه مغبة تلك المناجاة . يخاف ان يبدو على وجهه شيء من امارات ما يجول في خاطره فيؤخذ بتبعة ذلك الخاطر ويساق الى السجن او المنفى . وان كان ممن يؤبه له فربما سيق الى القتل او الكورك ومن يجسر أن يدفع او يقول رفقاً . وربما كان عقاب الشافع او طالب الرفق اشد من عقاب المتهم

منذ بضعة اسابيع كان كثيرون من اعيان العثمانيين واشدهم محبة واخلاصاً في رفع شأن العثمانية يخاف ان تفلت من صدره زفرة او يباغته تنهد فينقل عنه خبر تلك الزفرة او ذلك التنهد جاسوس عليه من المتظاهرين بصداقته او ممن هم في خدمته بل ربما نقل عنه الخبر احد بنيه او امرأته وهناك الطامة الكبرى والبلية العظمى

منذ بضعة اسابيع ايها السادة كان تألم المتألم منا سراً على ما وصلت اليه العثمانية وعلى ما صار اليه العثمانيون ذنباً من اكبر الذنوب وكان احدنا يخاف ان يمض اهل الشر والنذالة يدس في بيته او بين كتبه كتاباً او يمض وريقات بصورة كتاب الى احدهم او مقالة لجريدة فكان ذلك يكفي لان يحسب من اكبر المجرمين والخونة المارقين ولو كان صدره يغلي بحب العثمانية والعثمانيين

وخلاصة ما يقال انا كنا منذ بضعة اسابيع والظلمة تغشانا والمخاوف تهدد كل عثماني حر منا تزيه في نفسه صادق في عثمانيته مخلص لامته . واريد بالاخلاص الاخلاص الحقيقي المبني على العلم والحكمة والامانة لا هذا الاخلاص المدعى زوراً المتافق فيه بهتاناً الذي كان كثيرون يضعونه على وجوههم السمجة والسنتهم الكاذبة

كنا منذ بضعة اسابيع والصدور ضائقة بما فيها والنفوس واجمة من هول ما ترى من موقفها والعقلاء النزهاء لا يدرون ماذا يصنعون ولا ماذا يقولون وكأنما اطبقت عليهم السماء وسدت عليهم منها منافذ الرحمة اوضغطت عليهم الارض حتى رضتهم رضًا فألصقتهم بالتراب اودفعتهم الى مخارم الجبال وبطون الغيران وظلمات الكهوف وقد حصرت صدورهم وساءت او كادت ظنونهم تسيء بالعناية الالهية . بينما نحن في هذه الظلمة المدلهمة وفي حال من اليأس والقنوط ما شهدنا مثلها ولا آباؤنا الاولون سطع علينا بغتة نور القانون الاساسي فاشرقت على آثاره شمس الحرية الشخصية والحرية القومية والحرية الفكرية الادبية

ما بين غفلة عين وانتباهتها يغير الله من حال الى حال

واذا عظمت النعمة فليس يزانها الا الشكر . فالشكر لله ثم الشكر له . وبعد الشكر لله لا يسعنا الاغضاء عما فعله امراء جنديتنا العثمانية البواسل نيازي وانور والوف امثالهم وكلهم في الشرف والهمة والاستبسال في سبيل العثمانية نيازي وانور

وبعد فموضوعي مؤلف من كلمتين الاولى منهما « نحن » والثانية « الدستور » ولا بد لي من تحديد ما يراد بهاتين اللفظين وابدأ بلفظة الدستور اولاً واعني كل دستور عموماً ودستورنا العثماني خصوصاً

ما هو الدستور ؟ هو القوانين المستنبطة وفقاً للاختبار والحكمة ليعامل بموجبها افراد الامة اسعاداً لهم من حيث هم افراد واسعاداً وتعزيزاً لهم من حيث هم امة اي مجموع افراد وللافراد كل الحق والحرية ان يتقاضوا المعاملة بموجب نص تلك القوانين صراحة او ضمناً وللامة ايضاً ملء الحق والحرية ان تحتاط لحفظ هذه القوانين وصيانة حرمتها ممن يتخوف منه الاعتداء عليها او اهمال العمل بها

هذا تحديد شبيه بتحديد المناطقة ولكني لا اضمن انه جامع مانع كما اني لا اضمن ان يكون موافقاً تمام الموافقة لتحديد فلاسفة العمران او المتشرعين ولكني اقول انه تحديد فيه من الصحة القدر الذي اريده لبيان اهمية كل دستور وعظم قيمته الحقيقية

على انه يجوز تعدد التعاريف اذا كان المعرَّف متسعاً كما هي الحال في الدستور لانه يجوز ان يكون الحد او التعريف صفة من صفاته او غاية من غاياته كما يجوز ان يكون بياناً لكيفية حصوله والعوامل التي اثرت في كيانه تدريجاً وما انفق في سبيل ذلك من القوى المعنوية والمادية حتى بلغ ما بلغ اليه

الدستور ايها السادة هو نتيجة محاربات الخير والشر اجيالاً الله يعلم كم هي عدتها وبعبارة اخرى هو مجموع ما استفادته الانسانية من غلبات الخير على الشر في اثناء العراك

الهائل الذي قام بينهما من اول عهد الانسان الى الآن هو نتيجة غلبات العدل على الجور والعقل على الحيوانية والعلم على الجهل في اثناء مئات من الاجيال هو ثمرة عقل كل عاقل في المجتمع الانساني وحكمة كل حكيم واستقامة كل مستقيم وصبر جميع هؤلاء على المجاهدة المستمرة مدى الحياة اثناء الاجيال التي غبرت . هو الغاية ومجموع النتائج التي حصلت من كل سيفٍ استلّ في نصرة العدل والحق والاستقامة منذ قام عادل وعارف بالحق ومستقيم بين افراد الانسانية لحد هذه الساعة

الدستور العادل المرعي الاجراء عند كل أمة متمدنة هو الغاية ومجموع النتائج التي حصلت من كل لسان تكلم بالحق انتصاراً للعدل واذلالاً للجور كما انه غاية ومجموع نتائج كل ما خطه يراع حكيم عالم وكاتب فاضل انتصاراً للانسانية على الحيوانية والعلم على الجهل والحكمة على السفاهة ولكل ما هو شريف وعادل على ما هو خسيس وجائر

بل الدستور العادل المرعي الاجراء هو عند التحقيق مظهر لارادة الله في المجتمع العمراني وامر مما علّم به وجاهد له الانبياء والمرسلون ومن اقتفى خطواتهم واهتدى بهديهم من العلماء الراسخين والاولياء الصالحين والوعاظ اهل الغيرة المتقين

ايها السادة هذا هو الدستور العادل على الاطلاق ودستورنا العثماني دستور خاص يشتمل على كل ما يشتمل عليه دستور عام ويتناول كل ما قلناه عن الدستور العادل من الصفات والمقومات وزيادة ايضا شأن كل خاص فانه يشتمل على العام وزيادة . هذه الزيادة هي تعريض نفوس نحو من اربعمئة الف رجل من رجالنا العثمانيين للموت في حرب اهلية طاحنة . ولولا حكمة امراء هذا الجيش ومن نصرهم من خيرة اعيان العثمانيين بالرأي والمال . ولولا اقتناع جلالة مولانا السلطان بان ما عرض من الطلب على جلالته بواسطة جنديتنا الباسلة انما هو صوت الامة ـ لولا ذلك كله لكانت الدماء الآن تسيل انهاراً والاموال تنفق جزافاً في سبيل الحصول على هذا الدستور

فهذا هو دستورنا العثماني الذي احرزته لنا سيوف اجنادنا العثمانيين بمعاضدة احرارنا المتحدين من امراء ووزراء وقادة جند باسل وعلماء اعلام وفقهاء عظام واهل حل وعقد من اعيان الامة ووجهائها في سائر انحاء المملكة فانهم كلهم رضوا به وحلفوا الايمان الرهيبة على مراعاته والاحتفاظ به كما يحتفظون باموالهم واعراضهم وانفسهم وكلهم امضى على وجوب الطاعة له والعمل به فاصبح من ثم مجد الامة وقوتها وملك كل فرد من افرادها يتمتعون ببركاته في حياتهم ويورثونه لمن يخلفهم من ابنائهم بعد مماتهم . فليحي هذا الدستور مجد الامة وحياتها وعزها وليحي القائمون بنصرته والعاملون به

ترون ايها السادة مما ذكرته في بيان حقيقة الدستور اني لا ارى ان افراحنا به هي صبيانيات تافهة ولا احتفالاتنا ومظاهراتنا الخارجية تكرمة له ولحماته تهوسات ضارة بل هي مهما بلغت مع القصد والحكمة قليلة في جنب اهميته ومقدار قيمته . واي قيمة اعظم من قيمة الحياة حياة الفكر والقول والعمل المشروع للفرد وحياة العزة والقوة والتوازر والاستقلال والاستبسال للامة . فمن اراد الحياة فليقل ليحي الدستور العثماني والقائمون به ومن اراد الموت موت الذل والصغار والاستعباد فلا رحمه الله وليمت هذا الشخص من بين جماعة العثمانيين الحرة

ايها الكرام فرغت الآن من الكلام على الدستور وهو احد كلمتي موضوعي وبقي عليَّ الكلام على الكلمة الثانية منه وهي كلمة « نحن » فارجو ان تعيروني إصغاءكم في بيان المرادمنها وما اليه فان هذا البيان الثاني لايقل في الاهمية عن البيان الاول ان لم يكن اهم منه

قلت ما محصله ان دستورنا العثماني هو مجسم ارادة الامة العثمانية العادلة الخيرة وهو ملك افرادها اليوم وميراث ابنائها غداً. وقد نعتنا الارادة بالعادلة الخيرة والا فالاستبداد ارادة وحكومة الظلم والجور والبغي ارادة ايضاً. وارادة الامة العثمانية (وكل امة) هي ارادة مجموع افرادها او من ينوب منابهم من المتبوعين واهل الجاه الذين يقولون عن اتباعهم ويقطعون من دون استشارتهم ومراجعتهم

لكن ربما يستنتج من قولنا ان الدستور هو مجسّم ارادة الامة ان قيامه او سقوطه متوقفان على ارادة الامة فاذا ارادت اقامته قام اي روعيت احكامه وعمل بها واذا ارادت اسقاطه سقط اي اهملت احكامه وعمل باحكام مناقضة لها . وظاهر هذا الاستنتاج صحيح ولكنه ظاهر مموه مشوب بكدورة من النظر الفاسد . والحقيقة هي ان قيام الدستور اي مراعاة احكامه والعمل بها دليل على ان في الامة ارادة خيرة عادلة غالبة والدستور هو مجسم تلك الارادة . واما اذا سقط فلا يكون سقوطه دليلا على ان الامة ارادت اسقاطه بل هو دليل على ان الامة ميتة لا إرادة لها كأمة لا كافراد . وبعبارة اخرى لما كانت الامّة هي مجموع الافراد كان لنا ان نقول ان قيام الدستور واستمراره مرعياً دليل على ان هذا المجموع حي مريد ارادة خيرة عادلة اما سقوطه اي اهمال العمل به فدليل على ان هذا المجموع (لا الجميع) ميت جبناً او جهالة كمجموع لا كافراد اذ لا تخلو الامة من افراد لهم ارادة خيرة تعضد الدستور العادل ولكنهم كثيراً ما يكونون مضعوفين مغلوبين على ارادتهم كما كان الحال عليه بيننا منذ بضع سنين بل منذ بضعة اشهر

ولنرجع الآن بعد هذا الاستطراد الى بيان المراد بكلمة «نحن» فمن نحن ؟ يجوز

لي ان اعم في الجواب وان اخصص فان عممت قلت نحن من العثمانيين الذين لهم ارادة وارادتهم جزء من ارادة الامة العثمانية . وان خصصت قلت نحن جماعة اكثرهم من اللبنانيين قاموا باحياء هذه الليلة الزاهرة لتحية الدستور والاقرار بامتنة عاليا لحمانه من امراء جنديتنا البواسل . ومعظم هذه الاكثرية من قضاء الشوف وهم من اعيانه واهل الوجاهة فيهم ممن يجوز ان تمثل ارادتهم ارادة الاهلين كلهم او اكثرهم . لكن يا ترى اذا مثلت ارادة هؤلاء السراة الحاضرين الآن ارادة اكثر اهل قضاء الشوف فهل تمثل ارادة اللبنانيين كلهم . وهب انها مثلت ارادة كل اللبنانيين فهل تنطبق ارادتهم على الدستور العثماني الذي هو مجسم ارادة مجموع الامة العثمانية العادلة المقدسة

جائز ان يكون الجواب من قبيل الجواز او من قبيل القطع بالحكم . اما انا فاقول ان ارادتكم ايها السراة العثمانيون التي تمثل ارادة اهل قضاء الشوف كلهم على الارجحية الغالبية ولعلها ايضاً تمثل ارادة كل اهل لبنان لا تنطبق على ارادة الامة العادلة تمام الانطباق الواجب الا مع الاخلاص . فان كنتم مخلصين في ارادتكم واتفاقكم المتبادل فارادتكم منطبقة على الدستور وهي جزء من ارادة الامة . اما اذا لم يكن اخلاص وكان هناك اهواء واغراض ذاتية خاصة فحسبكم ان مثل هذه الاغراض كانت فيما مضى سبباً لكل الويلات التي مرت بنا . الويلات التي لا نذكرها بل لا تمر في خواطرنا الا وتنقبض صدورنا اشد الانقباض من مجرد ذكرها بل من مجرد مرورها في البال مرور المسرع فانا اتقدم اليكم بالشرف العثماني وبشرف جنديتنا الباسلة ان تراجعوا ضمائركم وتتفطنوا لخفايا النفس وتفتشوا مخابيها فلعل هناك هوى يلوّن للارادة حب الذات بلون محبة الامة والشرف ويصور لها الغرض الخاص بصورة الغرض العام والمصلحة الذاتية بصورة المصلحة القومية العمومية

ايها الوجهاء من كان منكم يحب الظهور وبعد الصيت — ولا عار ولا غضاضة على احد بسبب ذلك — فليراجع نفسه وشرفه العثماني قبل ان يجزم ارادته بما هو في سبيله من الوسائل التي تؤدي به الى غايته هذه فان هذه المحبة قد تنقاد للهوى والهوى في جانب الباطل دائماً وعلى عداء مع الدستور المقدس

ان المناصب في خدمة الامة على اختلاف انواعها وتفاوت درجات شرفها واهميتها جائزة لكل عثماني كفء لها ومباح له طلبها والسعي في احرازها بل والتنافس في ذلك ايضاً الا ان الشغف بالتربع في المناصب قد يباينه الاخلاص احياناً كثيرة ويداخله الهوى ولذلك ففيه ما فيه من الخطر الذي قد يسوق صاحبه الى الجري في خطة القوم السالفين

خطة التزلف الى من فى يدهم الامر والنهي والعزل والتنصيب . فمن كان يرغب فى المناصب فليحاسب نفسه وليتق مغبة التزلف الى من انقذوا الامة من الحالة التي كانت فيها قبلا الى الحالة المجيدة الشريفة التى هي عليها الآن . فما اوصلنا الى ما وصلنا اليه سابقاً الا اطماع واغراض وحب وجاهة وتفوق فى غير موضعها او فى غير الحق فجرت كل هذه او بعضها الى التزلف . والمتزلف قل ان يصور الامور الا فى غير صورتها الحقيقية . فالاناة الاناة والاخلاص الاخلاص ايها العثمانيون والا شمت بنا الاعداء وكثيرماهم . أما والذي نفسي فى يده اني لافضل ان تضرب عنقي على ان آتي ما فيه معرة او غض من شرف عثمانيتنا الجديدة فانها تجلت الملأ اجمع للصديق والعدو نقية من كل دنس ومن ثم فأقول هفوة منا نحن مريديها تظهر على بياضها النقي لطخة سوداء شائنة يتألم لها قلب المحب وتصغر نفسه ويطير لها فرحاً قلب العدو وتندفع نفسه الخبيثة للتشنيع والمذمة ويطل رأسه كبراً بها ان كان اخنسه صغاراً وجبناً — ومع اني اشعر هذا الشعور وانا صادق فيه نظير كل واحد منكم — مع ذلك لا آمن من بدوات النفس واهوائها الخفية التحرفة ان تفسد اخلاصي ان لم اكن على أشد الحذر منها والانتباه لها — اخاف هذا مع بعدي عن التدخل بما يسمونه سياسة او حزباً وانصراف نفسي عن الوظائف جملة بما انا راض به تمام الرضى من خدمة العلم والمتعلمين

على ان الاخلاص وهو من مقومات العثمانية وأهم اركان هذا البنيان الجديد الشريف الذي شرع فيه احرار العثمانيين لا يكفي وحده ان لم يصحبه العلم والخبرة فكم من هبة جهل وتسرع من اخلص المخلصين افسدت رأياً كان فيه مجد العثمانية وقوتها وحياتها لم يكن يطمع في افساده اعدى اعدائها . والعلم نتيجة الفكرة والتروي والتدبر فلا بد لنا اذن من كل هذه قبل العمل . وربما الحق بنا المخلص المتسرع من الضرر في ساعة اضعاف ما يلحقه بنا المنافق في ساعات بل في اشهر

تعلمون ايها السادة ان يومنا الذي نحن فيه يوم تأسيس لا تزيين وهو يوم له ما بعده فان كان الاساس من ثم راسخاً ثابتاً فكلما يبنى عليه فيما بعد يكون شبيهاً به ويكون لنا ايضاً والا فانتم ادرى مني بمصير بنيان تُسُرّع فى تأسيسه . وعليه فنحن اليوم احوج الى التروي والفكرة من كل الايام التي مرّت بنا ومن كل الايام التي ستمر بنا بعد ان تستتب امورنا ويرسخ اساس عثمانيتنا الجديدة الحرة

فيا ايها الذين تتسرعون في آرائكم ولا تفكرون في عواقب ما ترتأون ولا في مغبة اعمال لم توفق الى الرأي الصائب دعوا التسرع جانباً فان تسرعكم لا يفيدنا الان وان كنتم

اخلص المخلصين واغير اهل الغيرة الحقة على شرف العثمانية ومصلحة العثمانيين . إنا في حاجة الى المخلصين اصحاب العلم والخبرة الذين قبل ان يقولوا يفكرون ويتروون وبعد ان يقولوا يفعلون كما يقولون مثل هؤلاء تطمئن اليهم نفوسنا ونسلم اليهم قيادنا وتدبيرنا

ولا اعني باصحاب العلم والخبرة الثرثارين المكثرين من فضول الكلام كما اني لا اعني بهم من يستظهرون آداباً ويكتبون اقوالا ويحملون في ذاكرتهم اسفاراً او ينظمون وينثرون مدحاً وهجاء بل اعني باصحاب العلم الذين نحتاج اليهم اليوم اصحاب الرأي الاصيل والتدبير المحكم الذين يعرفون اهواء الامة ويعرفون امراضها ومواضع الخلل فيها ثم هم يعرفون كيف يصرّفون تلك الاهواء على مقتضى العقل والحكمة وكيف يداوون تلك الامراض ويسدون ذلك الخلل ولا بد ان يكون واحدهم عارفاً ايضاً بمجمل احوال الامة العثمانية وما بينها وبين بقية الدول من المعاهدات والمتاجرات ويعرف ايضاً ما لتلك الدول من الخطط والتقليدات

هؤلاء هم الرجال الذين نريدهم في الوقت الحاضر وهم من المرادين بقولنا «نحن» في موضوعي «نحن والدستور» ثم لا بد ان يكون لهؤلاء الرجال من مساعدين على شاكلتهم في الاخلاص والنزاهة والعلم والخبرة . واما الرجال الذين نريدهم مع الايام فلا مجال الآن لذكرهم وتعريفهم وما نطلبه من كل واحد منهم . وآخر ما اختم به مقالي أنا نريد بلفظة «نحن» العثمانيين المخلصين النزهاء اهل العلم والخبرة اهل الحكمة والتدبير الذين يقولون قليلا ويفعلون كثيراً . نريد بلفظة « نحن » المخلصين من اهل النجدة والفتوة كهؤلاء البواسل الذين يبذلون نفوسهم دون الامة ودون انفاذ مآل دستورها او قانونها الاساسي العادل ويجعلون سيوفهم رهناً لاشارة اهل العلم والرأي والحكمة والتدبير من غير لغط ولا قلقلة ولا دعوى . بمثل هؤلاء يحيا الدستور ويعظم شأن الامة فليحيوا وليحي الدستور الذي هو مجسم ارادة الامة ارادتها العادلة الخيرة ولتحي الامة وليحي ابناؤها هؤلاء الاجناد البواسل وكل اصحاب الارادة الحرة والاخلاق الشريفة الفاضلة وليحي ايضاً رأس الامة العثمانية المجيدة الذي اصبح يرى ويحسب نفسه اباً وافراد امته اولاداً والسلام

البلدان العربية

واهمية اللغة العربية فيها

اعني بالبلدان العربية في المملكة العثمانية الولايات والمتصرفات التي يتكلم اهلها اللغة العربية فقط او يتكلمونها مع لغة أخرى ولكنها اي العربية هي اللغة المعول عليها في كتابات الاهلين ومخاطباتهم ومعاملاتهم على سبيل الاجمال ثم هي فوق ذلك لا تنازعنا فيها السلطة دولة أخرى اجنبية بسبب من الاسباب او لا يحق لها ذلك . فيخرج بالشرط الاخير كل البلدان العربية في القارة الافريقية (عدا طرابلس الغرب) وبعض البلاد في شبه جزيرة العرب ويبقى لنا الولايات والمتصرفيات الآتي ذكرها

(١) ولايتا بيروت وسوريا ويلحق بهما متصرفيتا لبنان والقدس
(٢) ولاية حلب
(٣) متصرفية الزور
(٤) ولاية الموصل وقسم كبير من ولاية ديار بكر
(٥) ولاية بغداد
(٦) ولاية البصرة ويلحق بها الكويت والاحساء
(٧) شمر والقصيم
(٨) الحجاز
(٩) عسير
(١٠) اليمن وتهامة

وهي بلاد كبيرة واسعة الاكناف ويقال عنها اجمالا انها (ما عدا الحجاز) من اخصب بلدان الدنيا على اعتدال في هوائها وطباع اهلها فضلا عن انها كلها في وسط المعمور تقريباً وعلى طريق التجارة بين الشرق والغرب. وكانت قديماً ويمكن ان تكون في ما يأتي من الزمن بلاد الزراعة والصناعة والتجارة ومركزاً للعلم والادب ايضاً. اما عدد سكانها ففيها على سبيل التقريب اثنا عشر مليوناً من النفوس على التعديل المتوسط وربما بلغوا الخمسة عشر مليوناً او ما يقارب ذلك بحسب تعديل بعضهم. واكثر هذا العدد من الحضر سكان المدن والقرى وفيهم الاعراب سكان الخيام الذين يسرحون بانعامهم وماشيتهم من مرعى الى آخر ولكن عددهم لا يتجاوز الثلاثة ملايين في الارجح وعلى اعلى تعديل ايضاً

اما ولايات سوريا وبيروت وحلب ومتصرفيتا القدس ولبنان فمعروفات عند جمهور القراء. واما الموصل وديار بكر ومتصرفية الزور فانها وان تكن من البلدان العربية الا انها متنحيات نوعاً عن أم البلدان العربية أعني جزيرة العرب ومتاخمات الفرس والارمن والاكراد والاتراك ولاسيما ولاية ديار بكر وعليها بعض الصبغة من هذه الامم ولا يفهم من قولي هذا ان هذه البلدان تنزع في اميالها ومشاربها واغراضها وتقاليدها الى الاتراك او الاكراد او الارمن اكثر مما تنزع الى العرب ولا اظن ايضاً ان في الواقع شيئاً من هذا فان الذين يتكلمون لغة من اللغات تكون نزعاتهم في اميالهم ومشاربهم وتقاليدهم واغراضهم السياسية والاجتماعية الى جانب اهل لغتهم وان بعدوا عنهم اكثر مما هي الى جانب اهل لغة أخرى وان هم قربوا منهم في الجوار حتى وفي الجنسية البعيدة ايضاً

على ان بعد هذه البلدان الثلاث وتنحيها عن صميم البلاد العربية ووجود بعض الصبغة في سكانها ممن جاورهم من الاجناس الاخرى كل ذلك ما كان ليمنعني من التكلم عنها فيما لو كنت استطيع ان افيد القراء فائدة تذكر ولهذا تركت القول هنا كما تركته في اهل الولايات الاول

ولايتا بغداد والبصرة

وهما من أمهات الديار العربية قبل الاسلام وبعده اما قبل الاسلام فلأن الحلة كانت داراً لملوك العرب من ايام جذيمة الابرش الى آخر من ملك من المناذرة. واما في الاسلام فاختطت البصرة والكوفة في ايام عمر بن الخطاب وما زالتا مدينتي العرب اجيالا ولما قام المنصور العباسي اختط بغداد وبقيت داراً للخلافة الاسلامية العربية الى ان قدم هلاكو اليها سنة ٦٥٦ هجرية وقتل الخليفة المستعصم بالله واستباح المدينة اربعين يوماً قيل فبلغ القتلى اكثر من مليون نفس ولم يسلم الا من اختفى في بير او قناة

اما عدد السكان في هاتين الولايتين فيبلغ على ما جاء في الاحصاءات الحديثة نحواً من مليونين وهو عدد كادت تبلغه مدينة بغداد وحدها في ابان عزها. والبلاد لا ينقصها خصب ولعلها من اخصب بلدان الدنيا ولاسيما بقعة مدينة بغداد وما حواليها فانها تصلح للزرع والضرع وقد جاء في الانسكلوبيديا البريطانية انها قد تغل اربعمئة ضعف. وربما بلغ طول ساق النخلة في بساتين بغداد والبصرة نحواً من ثمانين قدماً وطول سعوفها اثني عشرة قدماً ويقول زويمر صاحب كتاب مهد الاسلام ان احد كبار التجار الانكليز في البصرة يقدر غلة التمر سنوياً بنحو من مئة وخمسين الف طن او ستمئة الف قنطار شامي ولا يبعد ان هذه

الغلة قد تضاعفت من عشرين سنة الى الآن . والعارف بالبلاد وبنسبة بساتين التمر الموجودة الآن الى ما يمكن ان يكون منها لا يشك ان غلة التمر يمكن ان تتضاعف الى عشرة امثال ما ذكره زويمر في خلال عشرين سنة من الآن اذا وجد الأمن المطلوب وأمن الفلاح الظلم والاعنات

وأهل البلاد خبيرون بتربية النخل منذ القدم ولا يزالون الى اليوم وهو من المواد الاولية في معاشهم وليس في شجرته شيء الا وله منفعة واستعمال عندهم. والشائع على الالسنة ان لشجرة النخل الف منفعة ومنفعة ويكفي من منافعه ان المرأة على ما يقولون تطعم اهل بيتها كل يوم لوناً من التمر غير الذي اطعمتهم اياه بالامس على مدى ثلاثين يوماً

والبلاد ايضاً كما هي بلاد نخيل هي كذلك بلاد حبوب وقطاني وبلاد صوف وقطن وصمغ ورب السوس . ذكر زويمر ان معدل اثمان صادرات الصوف من ولايتي بغداد والبصرة بلغ سنة ١٨٩٧ نيفاً ونصف مليون من الجنيهات الانكليزية

ولقد كانت بغداد والبصرة من اكبر المراكز التجارية في العالم في ايام زهو العباسيين فانصبت اليهما تجارة الشرق كله براً وبحراً فكانت القوافل تأتي بغداد من اقصى الشرق والشمال والمراكب تأتي البصرة من كل الفرض التجارية في افريقيا والهند وسيلان وبحر الصين. وفي هذه البقعة كانت أشهر المدن التجارية قديماً فبابل وسلوقية واكتزيفون كانت في هذه البقعة وقد فاقت عليها كلها بغداد وكذلك كانت اور والاسار وأرك وكلنة وفاقت عليها كلها البصرة. وشوشن القصر وهي عاصمة الدولة الفارسية في ايام داريوس الكبير ومن خلفه هي في مركزها التجاري على حسنه دون مركز البصرة او بغداد الآن

بغداد اخصب بقعة في العراق. دجلة والفرات طريقان مائيان عظيمان ينصبان اليها من الشمال الاول رأساً والثاني بما يوصل من الترع بينه وبين دجلة . ودجلة يوصلها بالبصرة اتصالا لا ينقطع ثم البصرة توصلها بخليج فارس فخليج عمان فباقي البحار الكبيرة . فاي مركز اذن يفضل مركزها ليتأمل متأمل موقعها الجغرافي ثم ليحكم بنفسه لنفسه

قبل ان اترك هاتين الولايتين لا بد لي من ان اذكر ما ذكره زويمر في كتابه مهد الاسلام « انه في سنة ١٨٩٧ خرج من مينا البصرة اربعمئة وواحد وعشرون مركباً شراعياً وخمس وتسعون باخرة محمولها ١٣١٨٤٦ طناً ومن الخمس والتسعين باخرة احدى وتسعون « لبريطانيا العظمى ». ولا يجهل عثماني عرف بغداد من موظف وتاجر ما لقنصلاتو بريطانيا من الاهمية في بغداد . الاهمية التجارية والسياسية . وكلنا لم ننس بعد الازمة السياسية في وزارتنا العثمانية التي احدثتها شركة لنش الانكليزية هناك في بدء السنة الرومية الحالية

تابع ولاية البصرة

قلنا ان الكويت والاحساء تابعتان لولاية البصرة و نقول ان المرحوم مدحت باشا قدم اليه ايام كان والياً هناك عبد الله بن سعود يستنصره على اخيه سعود واجات سياسته حينئذ عن ان ألحق الكويت والاحساء بولاية البصرة وشكل منهما متصرفية سميت بمتصرفية نجد. اما الكويت فعلى ان يكون عبد الله المذكور قائمقاماً عليها كل ايامه تحت حماية العثمانيين فدخلت الكويت والاحساء تحت حمايتنا من نحو ثلاثين سنة ولم ينازع منازع في ذلك وتشكلت متصرفية الاحساء كما الفنا ولا تزال الى الآن يعين لها المتصرفون من قبلنا ومعهم من الجند والضابطة ما تقتضيه الحاجة السياسية والمدنية . ولا شك ان الجزيرة المعروفة بالبحرين كان ينبغي ان تكون تابعة للمتصرفية ولكن الاهمال من جهة وبعد الشقة من جهة اخرى والجهل باهمية موقع الكويت وموقع الجزيرة معاً كل ذلك جعل المتصرفين يغضون النظر عن الكويت والجزيرة ويتركون لرؤساء القبائل فيهما ان يتصرفوا بالبلاد والعباد كما يشاؤون كانما هم مستقلون في المكانين المذكورين

موقع الكويت والاحساء

الى الجنوب بميلة الى الغرب من مصب الفرات ودجلة في خليج العجم على جون كبير واسع يضرب في رمال جزيرة العرب على بقعة من صميم تلك الجزيرة هناك مدينة الكويت الحالية وهي مدينة نظيفة بالنسبة الى البصرة او غيرها . ويبلغ عدد سكانها اثني عشر الفاً او يزيد وميناها واسع امين من احسن مرافىء شرقي جزيرة العرب بل احسنها. ويقال انها ستنتهي فيها السكة الحديدية البغدادية فاذا تم لها ذلك اصبحت محطة من اكبر واقرب محطات الهند والشرق الاقصى

والكويت في فلاة قاحلة ليس لها ما تعتمد عليه الا التجارة . وتجارتها متسعة مع شمر ونجد والحجاز ومنها ترسل الخيول الى البنادر الهندية وهي اذا ما اتجهت منها جنوباً ما زالت في رمال قاحلة لا ماء ولا مرعى الى ان تصل القطيف فاذا وصلت القطيف وصلت واحة من اخصب الواحات في بلاد العرب وتستمر هذه الواحة جنوباً حتى تبلغ قطر وهي أي قطر شبه جزيرة كثيرة الرمال قليلة النبات قل ان ترى فيها شيئاً اخضر وهي تابعة لمتصرفية نجد أيضا

والبلاد بين قطر والقطيف تعرف قديماً بارض البحرين وتعرف اليوم بالحسا او الاحساء

وربما أطلق هذا الاسم في الخارطات على كل البلاد من قطر الى البصرة. وبين شبه جزيرة قطر والقطيف جزيرة البحرين ومياهها كثيرة عذبة وبعضها ينبع في البحر وعدد سكانها نحو ستين الفاً. وهذه البقعة اي بين رأس قطر والقطيف مغاص من أحسن مغاوص اللؤلؤ في العالم كانت ولا تزال الى اليوم . وسكان قطر وجزيرة البحرين كلهم يشتغلون بالغوص مدة خمسة أشهر كل سنة من حزيران الى تشرين الاول

قلنا ان البلاد من البصرة الى شبه جزيرة قطر تشكلت متصرفية من نحو اربعين سنة وتشتمل على ثلاثة اقضية قضاء قطر وقضاء القطيف وقضاء نجد وعدد سكان هذه المتصرفية يبلغ مئتين وخمسين الفاً. ومن مدنها بدعة وهي مدينة قطر والعقير وهي ميناء هناك والحسا وتسمى الحفوف ايضاً وهي هجر القديمة المعروفة بكثرة تمرها. والمبرَّز. والقطيف وهي مينا ايضاً. وأهمية هذه المتصرفية انما هي لانها مفتاح العربية من جهة الشرق وطريق تجارتها مع الهند وبلاد فارس وفوق ذلك فالحسا هي المحطة الاولى على طريق القافلة من خليج فارس الى مكة وجدة والمدينة

وقبل ان انتقل من هذه المتصرفية لا بد لي من القول ان البحرين وهي جزيرة اللؤلؤ هي الآن تحت حماية الدولة البريطانية وقد تداخلت في نصب حاكم لها منذ سنة ١٨٦٧ فانها في تلك السنة نصبت عيسى بن علي حاكماً أو سلطاناً على الجزيرة بعد ان عزلت اباه عن كرسي الحكم. ومنذ بضع سنين اصبحت تدعي ان لها حق الحماية او الوصاية على الكويت ولها فوق ذلك من النفوذ في كل خليج فارس ما لا يسع احداً من ساسة العثمانيين ان يجهله فانها هي المسيطرة معنوياً على كل الحركات التي تجري على شواطىء هذا الخليج الغربية والشرقية في بلاد فارس وفي بلاد العرب وفي يدها متى شاءت ان تثير الخواطر او تسكنها فان عمالها هناك اهل ادراك ويقظة لا تفوتهم حركة ولا سكنة تنتفع بها امتهم او يزاد بها نفوذ دولتهم بوجه من الوجوه . اما معنى الحماية البريطانية فمنع معاوقة تجارتهم ومنع بيع الرقيق علناً حيث لهم معتمد خصوصي ثم ترك الحكام وشأنهم والقضاة وشأنهم يظلمون او يعدلون ويرتشون أو يعفّون فاذا تجاوزوا ذلك الى مخابرة سياسية او اظهروا شيئاً من الاستقلال في تصرفاتهم مع دولة أخرى فحينئذ تظهر الحماية البريطانية ويظهر أثرها بالمنع وفي ما عدا ذلك لا أثر لها الا ان يكون ذلك مرتباً سنوياً تدفعه الدولة البريطانية للشيخ او الامير عن حماية التجارة او منع بيع الرقيق او تألفاً له

شمّر والقصيم

شمر بلاد او واحة واقعة بين اجا وسلمى جبلي طيء وعاصمتها حائل وهي مدينة ابن الرشيد وكرسي امارته والى جنوبيها القصيم القصيم العليا والقصيم السفلى وفيهما عنيزة وبريدة مدينتا نجد (نجد الحجاز). وشمر والقصيم بلاد طيبة الهواء جيدة التربة. وبلغريف يقول ان حائل لا اثر فيها للبعوض والذبان ولا للقمل والبراغيث. ويقول ايضاً ان الجزرة لا رائحة لها واللحم لا يختر هناك. وسماؤها غاية في الصفاء ونسمات اسحارها لا اعل ولا انعش منها حتى نسمات اعالي لبنان فانها تقرب منها ولا تماثلها. وقد تغيرت الشؤون على حائل من ايام بلغريف الى الآن فكانت في ايامه تابعة لرياض تعترف بسيادتها عليها

فلما وقع الخلاف بين ابني فيصل الوهابي سعود وعبد الله ودارت الدائرة على عبد الله حتى لجأ اخيراً الى مدحت باشا ضعف شأن رياض. وعندها استقلت حائل وما زالت بعدها تنازع رياض السيادة فتارة لها وتارة عليها. وكان ضلع ولاتنا في بغداد والبصرة مع حائل وكثيراً ما جعل بعض امراء بيت الرشيد حماة لطريق الحج من قبل العثمانيين ومن ثم فهم يعترفون بسيادتنا عليهم ان لم يكن فعلاً فاسماً وأقل ما للعثمانيين من الحقوق على حائل بل ورياض ايضاً الحماية التي هي أشبه بالحماية البريطانية على كثير من اجزاء الجزيرة العربية في جهات اليمن والشحر او في جهات الخليج الفارسي

وهذا الحق يتصل اوله باستفحال امر الوهابية في رياض وامتداد سلطتهم وما ترتّب على ذلك من الفتوحات المصرية العثمانية تحت امرة محمد علي باشا وابنه ابرهيم باشا فان كل الولايات السعودية الوهابية وتشمل نجد واليمامة والعارض ووشم والسدير والقصيم وشمر وعسير اليمانية كل هذه دخلت حينئذ في حوزة العثمانيين واصبحت تابعة لهم من ذلك الحين واكّد هذه التابعية سنة ١٨٧١ التجاء عبد الله بن فيصل الى العثمانيين واعتراف امراء حائل لهم بالسيادة العامة ومثلهم امراء رياض من بيت سعود اثناء المنازعات التي وقعت بين امراء هذين البيتين من حوالي اربعين سنة الى الآن

اما رياض والبلاد النجدية التابعة لها ففيها واحات كثيرة وكبيرة ايضاً وهي أخصب تربة وأطيب هواء وأجمل مناظر من بلاد شمر ولعلها على ما يقول بلغريف من اجمل بقاع الدنيا وأعدلها هواء ينسي عندها جمال لبنان وتتضاءل مناظر ايطاليا لدى محاسنها المتنوعة. وعلى ذكر نجد اقول ان نجد هي قلب البلاد العربية ومحتد العرب العدنانية وكانت ولا تزال متغزّلا لشعرائهم واليها منزع افئدتهم وقلوبهم فاذا أبعدت النجعة اعرابها عنها لا يزالون

في شوق وحنين الى ان يرجعوا اليها واشعارهم فيها غاية في الرقة وجمال الوصف. ويحضرني منها قول بعضهم

اقول لصاحبي والعيس تهوي بنا بين المنيفة فالضمار
تمتع من شميم عرار نجد فما بعد العشية من عرار
ألا يا حبذا نفحات نجد وريّا روضه بعد القطار
واهلك اذ يحل الحي نجداً وانت على زمانك غير زاري
شهور ينقضين وما شعرنا بأنصاف لهن ولا سرار

وقال آخر وهو الصمة بن عبد الله بن طفيل

قفا ودّعا نجداً ومن حل بالحمى وقلّ لنجد عندنا أن يودعا
بنفسي تلك الارض ما اطيب الربا وما أحسن المصطاف والمتربعا
وليست عشيات الحمى برواجع عليك ولكن خل عينيك تدمعا
ولما رأيت البشر اعرض دوننا وحالت بنات الشوق يحنّ نزعا
بكت عيني اليسرى فلما زجرتها عن الجهل بعد الحلم اسبلتا معا
تلفت نحو الحي حتى وجدتني وجعت من الاصغاء ليتاً وأخدعا
واذكر ايام الحمى ثم انثني على كبدي من خشية ان تصدعا

ونجد تجمع القصيم والوشم والعارض واليمامة وفلج وربما بلغ عدد سكانها اليوم ما يزيد عن المليونين من النفوس وفيها من المراعي في الجبال والنجود والاراضي الخصبة الزراعية في الشعاب والاودية ما يماثل مراعي سوريا واراضيها الزراعية من جنوبي فلسطين الى ما وراء انطاكية شمالا ومن البحر المتوسط غرباً الى البادية بادية سوريا وفلسطين شرقاً. ونجد كثيرة الآبار وقد لا يكون اعمقها اكثر من خمس عشرة قدماً والمرجح ان فيها ايضاً معادن غنية من الذهب والفضة والنحاس والحديد على انه ان لم تكن غنية في المعادن فهي غنية بطيب الهواء وجمال المناظر وكثرة الزرع والضرع واذا اجتمعت كلمتها الى كلمة العثمانيين واصبح يخفق فوقها العلم العثماني الدستوري كما هو يخفق الآن على ربوع الشام كان في ذلك من القوة للعثمانيين ما لا توازيه كل قوة ولا ياتا الاوربية في الراجح ولا يضرنا فقد الهرسك والبوسنه ومثلها من الاملاك الاوربية اذا انضمت الينا نجد وجعلت نصيبها مع نصيبنا كما سنبين ذلك ان شاء الله

ولاية الحجاز

الحجاز ولاية كبيرة شاسعة الاطراف طولها من الشمال الى الجنوب نيف وخمسمئة ميل وعرضها يتراوح بين الستين والمئة وخمسين ميلا ويمر فيها من الشمال الى الجنوب طريق الحاج الشامي والمصري وليس فيها اثر للعمارة حتى تصل الى العلا. ويقال بالاجمال ان الحجاز بلاد شظف وسوء عيش في اكثر اقسامه إلاّ ما كان من جبل قرى الى الجنوب الشرقي من الحرم فان البلاد هناك ذات زرع وضرع وفيها المياه الجارية عدًّا لا تنقطع وتربتها خصبة وهواؤها طيب معتدل ويقدر عدد الاهلين في هذه الولاية بين المليونين والثلاث ملايين

وشهرة الحجاز اليوم ان فيها مدينتي الاسلام مكة والمدينة وهذا وحده مما يجعل الحجاز اهم ولاياتنا العثمانية واسباب ذلك لا تخفى على احد فان حماية الحرمين وحماية الطريق الموصل الى مكة وتسهيل فريضة الحج على المسلمين ينظر اليها امراء المسلمين في كل الاقطار الاسلامية من اقرب القربات الى الله وللسلطان المتولي ذلك المقام الاول والمنزلة الاولى بين سلاطين المسلمين ومهما عظم ملك غيره وكثر جنده وتوفر غناه فهو بمرتبة دون مرتبة من وكل اليه حماية الحرمين

واما شهرة الحجاز قبل الاسلام فكانت من حيث هو طريق التجارة بين مصر والعراق وبين الشام واليمن . وكانت مدينته العظمى مكة حجاً للعرب ومركزاً لتجارتهم ولا سيما الاعراب منهم قبل الاسلام بمئات من السنين. ويتلوها في الاهمية المدينة واسمها القديم يثرب

قلت ان عرض الحجاز شرقاً بغرب يتراوح بين الستين والمئة والخمسين ميلا وارجح انهم قالوا ذلك لانهم جعلوا حد الحجاز شرقاً النفود. على ان النفود الكبير الشمالي الذي فيه تيماء والجاه والجوف اولى ان يكون من الحجاز . والحجاز كثير الحرار كحرة المواهب وحرة خيبر وحرة بني سليم والحرة الدنيا والحرة الرجلاء والحرة القصوى وحرة ليلى وحرة النار وغيرها من الحرار . والحرة هضبة بركانية ذات حجارة سود نخرة وربما علت الحرة مئات من الاقدام على ما يجاورها من الارضين . وهواء الحرار اجمالا طيب للغاية يقوي الاجسام ويشدُّها صيفاً وشتاء

على ان القائم في الاذهان هو ان هواء الحجاز شديد الحر شديد الوبالة ايضاً ولا يصح هذا الحكم الا على بعض اقسام الحجاز وبيانه ان الحجاز منه غور ومنه نجد ومنه اودية الى البحر تتسلط عليه رياح الغرب ومنه اودية الى الشرق وتتسلط عليه ريح الصبا الشرقية

فالغور وما قابل البحر من الاودية واسناد الجبال كل ذلك يكثر فيه الحر والرطوبة ومناخه كمناخ جدة او سواكن وغيرهما من مرافىء البحر الاحمر المعروفة واما غيره ففي هوائه من الطيب والاعتدال ما يحببه الى اهله . واليك ماجاء في كتاب وصف جزيرة العرب للهمداني المشهور طبع ليدن بمطبعة بريل سنة ١٨٨٤ وجه ٤٨ قال ما نصه. ان جبل السراة وهو اعظم جبال العرب واذكرها اقبل من قمرة اليمن حتى بلغ اطراف بوادي الشام فسمته العرب حجازاً لانه حجز بين الغور وهو هابط وبين نجد وهو ظاهر فصار ماخلف ذلك الجبل في غربيه الى أسياف البحر من بلاد الاشعريين وعك وحكم وكنانة وغيرها ودونها الى ذات عرق والجُحفة وماصاقبها وغار من أرضها الغور غور تهامة وتهامة تجمع ذلك كله وصار مادون ذلك الجبل من شرقيه من صحاري نجد الى أطراف العراق والسماوة وما يليها نجداً ونجد تجمع ذلك كله وصار الجبل نفسه سراته وهو الحجاز وصار ما احتجز به في شرقيه من الجبال وانحدر الى ناحية فيد وجبلي طيء الى المدينة وراجماً الى ارض مدحج من تثليث وما دونها الى ناحية فيد حجازاً فالعرب تسميه نجداً وجلسا وحجازاً والحجاز يجمع ذلك كله . انتهى عن الهمداني

اذا تأمل متأمل وجد ان جبل السراة يمتد من اليمن جنوباً الى الشام شمالا وبينه وبين البحر غور يعرف ما صالى منه الحجاز بغور الحجاز او تهامة الحجاز او تهائم الحجاز وكله حجاز ثم ان السراة اذا وصل الطائف مال شرقاً كأنما في زاوية وترك مكة (وهي مدينة الحجاز) بينه وبين البحر فاصبحت البلاد من جدة الى مكة الى ذات عرق كلها غورية او تهامية وتهامة كلها شديدة الحر رطبة الهواء واما ظهر السراة وهو حجاز وما امتد منه شرقاً وعلا وكله حجاز كما رأيت ومن ولاية الحجاز ايضاً فهواءه اوطباعه معتدل كنجد ولاهله حنين وشوق اليه كالنجديين الى نجد وهم يفضلونه على العراق وعلى اطيب بقاعه اعني بغداد واليك من اقوالهم ما يشف عما ذكرنا قال بعض الاعراب:

تطاول ليلي بالعراق ولم يكن ... عليّ باكناف الحجاز يطول
فهل لي الى ارض الحجاز ومن به ... بعاقبة قبل الفوات سبيل
اذا لم يكن بيني وبينك مرسل ... فريح الصبا مني اليك رسول

وقال آخر

سرى البرق من ارض الحجاز فشاقني ... وكل حجازي له البرق شائق
فواكبدي مما الاقي من الهوى ... اذا حن الف او تألق بارق

وقال آخر

كفى حزناً أنّي ببغداد نازل وقلبي باكناف الحجاز رهين
اذا عنّ ذكر للحجاز استفزني الى من باكناف الحجاز حنين
فوالله ما فارقتهم قالياً لهم ولكن ما يقضى فسوف يكون

وقال بعض شعراء الاندلس

وما وجد اعرابية بان اهلها فحنت الى بان الحجاز ورنده
اذا ابصرت ركباً تكفل شوقها بنار قراه والدموع بورده
وان اوقدوا المصباح ظنته بارقاً يحي فهشت للسلام ورده
باعظم من وجدي بموسى وانما يرى انني اذنبت ذنباً بوده

وغير ذلك من اشعارهم كثير مما يدلك على ان ليس كل الحجاز جدة ومكة في شدة حرهما ولا كله قفار ورمال كمعظم طريق الحج حتى تصل مدائن صالح او قرية العلاء بل فيه من المرتفعات والنجود والاودية الخصيبة ما لا يقصر عن نجد في طيب الهواء وجمال المناظر وارتقاء العمران واغلب الذين زاروا الحجاز وخبروا جهاته يعرفون الطائف وجبل قرى وما في البلاد هناك من الجمال والاعتدال في الاهوية والاخلاق

والذي اريد ان يبقى في الاذهان وتتوجه اليه خواطر من يهمهم الامر ان الحجاز (والمحافظة عليه وامتلاك قلوب اهله) ضروري لعظمتنا العثمانية لا يعادله من هذا القبيل ولاية ولا ولايتان حتى ولا ثلاث ولايات ايضاً ولو كنّ من اهم ولايات الدولة ومن اكثرها ساكناً وغنى واوسعهنّ تجارة

متصرفيّة عسير

بلاد بين اليمن جنوباً وأرض الحرمين شمالاً وهي جبال وسهول امّا الجبال فطيّبة الهواء كثيرة المياه ولكنها عسرة المسالك وامّا السهول فخصبة جيدة المراعي جيدة التربة ينبت فيها كل انواع الحبوب والقطاني . وسهول بيشة الى جهة الشرق قد تستغني بمحصولاتها الطبيعيّة عمّا يرد الى الحجاز من الطعام عن طريق جدّة والقنفدة على شطوط البحر الاحمر او عن طريق الحسا والكويت على شطوط الخليج الفارسي . والعرب يخصّونها باسم الحجاز فاذا اطلقوا التسمية فهموا منها هذا القسم جنوبي الطائف حتى تصل ولاية اليمن (انظر بركهارت ـ البدو والوهابيون الجزء الثاني طبع لندن وجه ١٣٢) وهو ما يراد بمتصرفية عسير الآن

وعليهِ فولاية الحجاز تشتمل على ثلاثة اقسام القسم الاول الشمالي ويشمل البلاد الواقع فيها طريق الحج حتى تصل وادي القرى بقرب المدينة . والقسم الثاني المتوسط ويشمل البلاد بين مكة والمدينة ويعرف بأرض الحرمين أو بلاد الحرمين والثالث الجنوبي ويشمل البلاد بين ارض الحرمين وبين اليمن وهو متصرفيَّة عسير

في هذا القسم اعني متصرفية عسير قبائل كبيرة كثيرة اشهرها بنو غامد وظهران وبنو سالم وبنو عسير وأشهر هذه الثلاث بنو عسير وبلادهم جبليَّة متوعرة وبهم سُمِّيت المتصرفية الآن وهؤلاء العسيريون فيهم ما يزيد على الاثني عشر بل والخمسة عشر الف محارب على ما ارجح . وكان ابو نقطة من شيوخهم المشهورين في ايام محمد علي باشا الكبير ثم كان بعدهُ طعمة وهذا كان من كبار رؤساء الوهابيين من اعلاهم همَّة وأكثرهم رجالاً في موقعة كُلاخ أو بيصال وهي الموقعة التي انتصر فيها محمد علي باشا سنة ١٨١٥ على الوهابيين وفلَّ جموعهم وكانوا ما يزيد على الخمسة والعشرين الفاً ثلثهم من العسيريين . ثم تابع انتصارهُ هذا فتتبَّعهم الى ترابة وبيشة ومن بيشة توجَّه غرباً فاخترق جبال العسيريين واستولى على قلعتهم المعروفة بقلعة طور بعد معركة شديدة وما زال حتى بلغ شطوط البحر الاحمر قرب قنفذة ثم رجع من هناك الى مكة . ولما كانت البلاد جبلية طيبة الهواء كان اهلها اشدَّاء ذوي بأس ونجدة فقد حكى بوركهارت انهم وجدوا في موقعة بيصال كثيرين من قتلى العسيريين وقد ربط كلٌّ منهم رجلهُ الى رجل صاحبهِ كي لا يفرُّوا وكانوا قد تعاقدوا على ذلك وحلفوا عليهِ بالطلاق فلم يحنثوا . ورُوِيَ عن اسلافهم مثل ذلك اثناء الحملة الرومانية التي وجَّهها الامبراطور طرايانس الروماني حوالي سنة ١٠٥ بعد المسيح لفتح البلاد العربية

وبالاجمال يقال ان هذا القسم من الحجاز ولا سيما بلاد عسير يشبه بلاد اليمن الجبليَّة في تربتهِ وهوائهِ ومائهِ وشدَّة شكيمة اهلهِ ولا يبعد انهُ يشبهها في طبقات ارضهِ وما يحتويه من معادن الذهب والفضَّة والنحاس والحديد . ومتصرفية عسير كانت ولا تزال تابعة لولاية الحجاز ومن املاكنا العثمانية التي لا ينازعنا فيها منازع ومن الضروري ان يحرص عليها ولاتنا وقواد جيوشنا فانها كاهِلُ الحجاز وحصنهُ المنيع . الا ان الثورة الاخيرة قد فتحت فيها ثلمة ولا يستبعد مع الاهمال وترك اليقظة ان يدخل منها داخل على حين غفلة فيدَّعي بعدها بحقوق الحماية او مدَّعى آخر يشوِّش علينا فيها سلامنا وحسن جوارنا

ولاية اليمن

اليمن — وقد سماها اليونان والرومان قديماً العربية السعيدة — هي مهد الجنس السامي

في الراجح ومركز تمدنهم القديم ومنشأ الدول العربية العظيمة قبل الاسلام وقد شفّت الآثار مؤخراً عما وجه خواطر كثيرين من اهل البحث ومن جملتهم الاستاذ سايس الى القول بأن اليمن سابقة في تمدنها على مصر وبابل وأنها هي بلاد بُنْت او فوط التي هاجر منها الى مصر اسلاف الفراعنة العظام وحملوا معهم اليها العلم والحكمة والزراعة والصناعة والتجارة . ومنها ايضاً في الراجح كان اسلاف البابليين والاشوريين الذين حملوا في مهاجراتهم الى تلك البلاد ما حملوه الى مصر من العلم والصناعة كما أنّ منها او مما جاورها من بلدان الجزيرة كان معظم الجاليات التي استعمرت شواطىء البحر المتوسط في سوريا وآسيا الصغرى وبلاد اليونان وايطاليا وفرنسا وشطوط افريقيا مما يقابل جبل طارق حتى تصل الى مصر والسويس. وبالاجمال لا يستبعد ان تكون شبه جزيرة العرب وبالاخص العربية السعيدة اي اليمن ام التمدن القديم في كل آسيا الغربية وأوروبا وأفريقيا

هذه البلاد هي الآن جزء من مملكتنا العثمانية وكان ممكناً ان تكون من اهم اجزائها وأفضلها وأغناها لأنها تجمع الى طيب الهواء وجودة التربة وكثرة المعادن والحجارة الكريمة اجمل المناظر الطبيعية وأفخمها . جبالٌ شاهقة من افخم الجبال وأغربها اشكالا وهيئاتٍ لا ينقص ارتفاع بعضها عن الاربعة عشر الف قدم فوق سطح البحر وأودية عميقة ولا اعمق منها. ولا اغرب وأعجب مما يجري فيها من المظاهر الجوية فانك ربما تنظر الى بعضها وأنت على اسناد جبالها فتراها مملوءة سحباً وترى البروق تتمعج تحت نظرك بين هذه السحب وتسمع قصيف الرعد ثم لا تلبث الغيوم ان تنقشع عن تلك الاودية فتراها تسيل مياهاً يحمل تيارها الشجر والحجر ايضاً ولعل القائل اشار بقوله

كأني حيث ينشا الدَّحن تحتي فها انا لا أُطَلُّ ولا أُجادُ

الى مثل هذه الظاهرة اليمنية الغريبة والجميلة ايضاً

ليس جمال المناظر الطبيعية وان بلغ مهما بلغ ولا ارتفاع الجبال وان زادت على ارتفاع حملايا ولا عمق الاودية وان بلغ قرارة الهاوية — ليس شيء من كل ذلك بالامر الكبير لولا ان غنى البلاد الطبيعي في معادنها وزرعها وضرعها ونشاط اهليها ايضاً يناسب ما المعنا اليهِ من فخامة جبالها وجمال اوديتها وروعة جلالها

مساحة اليمن وأقسامها

لا تقل مساحة اليمن بما فيه تهامة فيما أرجح عن المئة وعشرين الف ميل مربع ولا يزيد في ما أظن عن المئة والخمسين الفاً منها بلاد جبال وخصب وهواء طيب ما يزيد عن

الثمانين الف ميل مربع في أقل تقدير والبقية بلاد رمال وحر شديد ووبالة الا بعض الواحات على جوانب أوديتها العظام مور وسردد وسهام ورمع وزبيد والموشج والموزع وعديم وعاصان ورغادة ومنيف والصهيب ويافع وهي أودية تسيل ماء غزير أزمان المطر الا ان معظمها تتشربه رمال تهامة قبل أن يصل الى البحر . وتقسم اليمن اجمالاً الى قسمين كبيرين تهامة والجبال . وتهامة تهامتان تهامة الغربية وتهامة الجنوبية اما تهامة الغربية فتمتد على موازاة شطوط البحر الاحمر بينه وبين الجبال وعرضها في الاكثر لا يزيد عن الثلاثين ميلا ويتسع أحياناً فيبلغ الخمسين والستين وقد يبلغ ما فوق ذلك وهو نادر. ومن موانى تهامة هذه لهيّا والحديدة ومخا وأشهر مدنها زبيد على متوسط المسافة بين البحر والجبال وربما سميت باسم الوادي المبنية الى جانبه ومياهه عِدٌّ لا تنقطع

وأما تهامة الجنوبية فتمتد من بوغاز باب المندب على شواطىء خليج عدن مايزيد عن المئتي ميل طولاً ويختلف عرضها بين الخمسين والمئة ميل ومن أشهر موانيها عدن وهي الآن في يد الانكليز اختلفوا مع حاكمها سنة ١٨٣٩ فباغتوا حاميتها ودخلوا حصنها عنوة قرأوا معقلاً ولا احصن وموقعاً تجارياً ولا أهم فأدخلوها في عداد أملاكهم فأصبحت اليوم وحصونها من امنع حصون الدنيا وميناها من احسن الموانى وأوسعها فتحولت اليها من ثم معظم تجارة اليمن بعد ان كانت ترد الى مخا والحديدة. اما مخا فماتت تجارتها واندرس عمرانها او كاد يندرس وأما الحديدة فانما ابقى على عمرانها انها مركز حكومة تهامة وميناء صنعاء الحربي وأن البلاد التي هي ميناء لها بعيدة أيضاً عن عدن بعداً شاسعاً . ويقال في تهامة اجمالاً انها مرعى جيد أيام الشتاء والبرد الشديد في الجبال ولكنها في أيام القيظ تثورٌ متوقد

وأما اليمن الجبال فتقسم الى اقسام كثيرة تعرف قديماً بمخالف اليمن كل قسم منها مخلاف وكان عليه في الغالب امير او شيخ يخضع لامير صنعاء اذا كان هو قوياً ذا حول وطول او يستقل عنه اذا وجد من نفسه قوة ومن متبوعه غفلة وضعفاً . واليك المخاليف التي ذكرها الهمداني صاحب كتاب صفة جزيرة العرب نذكرها لك كما ذكرت في فهرست الكتاب مرتبة بحسب الحروف الابجدية لا بحسب مواقعها الطبيعية: مخلاف آل ذي جرة. مخلاف اقيان. مخلاف الهان . مخلاف ذي جرة وخولان. مخلاف جيشان. مخلاف حراز. مخلاف حضور . مخلاف خولان . مخلاف ذمار . مخلاف ذي رعين . مخلاف رداع . مخلاف رداع وثان . مخلاف السحول . مخلاف شبام . مخلاف شبوة . مخلاف الشرف الاعلى . مخلاف عثر . مخلاف بني عامر . مخلاف العود . مخلاف لاعة . مخلاف مأذن

مخلاف مأذن وحملان . مخلاف مأرب . مخلاف المعافر . مخلاف المعلل . والذي يرجح عندي ان هذه المخاليف هي المشار اليها في نبوة ارميا بممالك حاصور او « حضور » ولعل السيادة في ذلك الوقت كانت لمخلاف حضور وهو على مقربة من صنعاء ولا يبعد ان صنعاء كانت المدينة العظيمة في هذا المخلاف الذي كان فيه مقر السيادة او الامارة العظمى حينئذ

صنعاء وما حواليها

موقع صنعاء شرقي الحديدة بميلة الى الشمال وشمالي عدن مع بعض الميلة الى الغرب وتبعد عن الاولى مئة وخمسين ميلاً وعن الثانية مئتين وسبعين ميلاً . وهي قلب بلاد اليمن ومركز دائرتها موقعاً وتجارة وسياسة وهي مبنية على قاع متسع في غربي جبل نقم . وينشعب من هذا الجبل هضبة فارعة عليها قلعة او حصن يطل على المدينة ويتسلط عليها والمدينة ثلاثة احياء حي العرب والترك وفيه الاسواق ومركز الحكومة وبيوت الاهلين وحي اليهود وهو منفصل عن الحي الاول بسيف من الارض القاحلة ويحيط به سور له على حدة وحي بير العصاب وفيه الجنائن وقصور الاغنياء من عرب وأتراك ويحيط بهذه الاحياء كلها سور من الاجر المجفف بالشمس الا ان معظم الابراج والحصون على السور مبني من الحجر الصلد . وللمدينة اربعة ابواب باب على كل جهة من الجهات الاربع وعدد سكانها على ما يرجح يبلغ نحواً من خمسين الف نسمة منهم عشرون الفاً يهود (انظر كتاب هرس « رحلة في اليمن » طبع لندن سنة ١٨٩٣ وجه ٣١٢) والمدينة تعلو عن سطح البحر ما يزيد عن سبعة آلاف وأربعمئة قدم

قلنا ان صنعاء واقعة في قلب البلاد اليمنية عدن الى الجنوب وصعدة ونجران الى الشمال والحديدة الى الغرب ومأرب عاصمة بلاد سبا قديماً الى الشرق . وفي مأرب هذه السد العظيم الشهير المعروف بسد مأرب وعرض هذا السد او ثخنه مئة وخمس وسبعون خطوة وطوله نحو الميلين على الاقل ويصل بين الجبلين على طرفي الوادي وأما علوه فكان يزيد على المئة والعشرين قدماً . وما زال قائماً نحواً من عشرين قرناً تقريباً . ومن اراد فليراجع وصفه في مروج الذهب للمسعودي فانه من أهول وأضخم وأنفع ما بناه الاقدمون وليس سد اصوان الحالي في جانبه الا ولداً صغيراً بالنسبة الى الجبار العظيم

جاء في شرح قصيدة ابن عبدون طبع ليدن وجه ٩٧ و ٩٨ — وقد نقل الشارح ما كتبه عن المسعودي — ما نصه

كانت بلاد مأرب جنة واحدة متصلة « وكانت العمارة فيها ازيد من مسيرة شهرين

للراكب المجد وكانوا يقتبسون النار بعضهم من بعض مسيرة ستة اشهر وكانت المرأة اذا ارادت ان تجتني من ثمرها شيئاً وضعت مكتلها على رأسها وخرجت تمشي تحت الثمار وهي تغزل او تعمل ما شاءت فلا ترجع حتى يمتلي مكتلها مما شاءت من الثمر الذي يتساقط طيباً »

هذه العبارات تشير الى العمران العظيم الذي كان للبلاد العربية اليمن ونجد والحجاز وأرض البحرين . ولا أشك ان العمران كان بحيث يجوز ان يوصف بمثل الوصف المار ذكره — اذا تسامحنا مع الكتاب ذوي المخيلة الذين كانت تحركهم محركات من الانفعالات عند ما كانوا يكتبون ما يكتبون — لان في الآثار الباقية من الادلة ما يصدقه واليك منها

(اولا) السدود التي على شاكلة سد مآرب فانها كثيرة جداً تصادفها حيثما سرت في اليمن . قال الهمذاني في كتابه وصف جزيرة العرب ما نصه

« وبيحضب العلو على ما خبرني ابو غالب بن ابي العباس بن ابي غالب السفلي ثمانون سداً قد ذكرنا عنه في كتاب الاكليل كبارها وفيها يقول تبّع

وبالربوة الخضراء من ارض يحضب ثمانون سداً تقلس الماء سائلا »

(ثانياً) ما يرى من المصانع والكرف واحدها كريف وهي مخازن الماء منقورة في الصخر الصلد من اشهرها ما ذكره الهمذاني في باب مآثر اليمن قال « ومنها كريف يسمى الوفيت منقور في الصفا الاسود وعمقه في الارض خمسون ذراعاً وعرضه عشرون ذراعاً والطول خمسون ذراعاً محجوز على جوانبه جدار يمنع السقوط فيه وكريف درداع يكون ستمئة ذراع في مثلها (الهمذاني وجه ٧٨) اه . وهذه الكرف او البرك كثيرة جداً في اليمن تصادفها حيثما سرت

(ثالثاً) الخرائب القديمة واليك بعض ما ذكره الهمذاني منها قال « ومنها خربة سلوق وكانت مدينة عظيمة بأرض خدير واسم بقعتها اليوم حبيل الريبة وهي آثار مدينة عظيمة فيها خبث الحديد وقطاع الفضة والذهب والحلي والنقد واليها كانت العرب تنسب الدروع السلوقية. ومنها جبل في مشرق وحاظة في رأس الجبل جثوة قصر منهدم لا يزال يوجد فيه الجوهر والذهب والناس يغزونه كما يغزون خربات الجوف » (الهمذاني وجه ٧٨ و ٧٩)

(رابعاً) كثرة المعادن فان في نجد وحدها من المعادن ما ذكره الهمذاني صفحة ١٥٣ حيث قال « ومعادن اليمامة وديار ربيعة التي توطنتها اليوم عقيل بن كعب معدن الحسن والحسن قرن اسود مليح وهو معدن ذهب غزير. ومعدن الحفير بناحية عماية وهو معدن ذهب غزير . ومعدن الضبيب عن يسار هضب القليب . ومعدن الثنية ثنية ابن عصام

الباهلي معدن ذهب . ومعدن العوسجة من ارض غني فويق المغير ببطن السرداح. ومعدنا شمام الفضة والصفر . ومعدن تياس ذهب بتياس . ومعدن العقيق معدن الحجة بين العمق وبين افيعية. ومعدن بيشة. ومعدن الهجيرة. ومعدن بني سليم. فهذه معادن نجد» انتهى،

والذي ارجحه ان المعادن من كل الانواع ولا سيما الذهب والفضة والنحاس والحديد هي في اليمن وحضرموت اكثر منها في نجد . وفيهما ايضاً اي اليمن وحضرموت الفحم الحجري والبترول وأنواع من الحجارة الكريمة

اذا احضر القارىء كل ما ذكرناه في ذهنه لم يصعب عليه بعد ذلك ان يتصور امكان وجود العمران العظيم الذي اشار اليه المسعودي في كلامه عن سد مأرب ونقلنا نتفة منه عن شرح قصيدة ابن عبدون ولا يصعب عليه ان يتصور ايضاً ان مثل هذا العمران يمكن ان يعود الى العربية السعيدة مع الايام فتصبح هي ونجد من افضل ولايات مملكتنا العثمانية الدستورية

عدد سكان اليمن

يقدرون عدد سكان اليمن العثمانية بين المليونين والثلاثة ملايين والمرجح عندي ان بلاد مأرب ونجران غير داخلتين في هذا الاحصاء لان البلادين وان كانتا ضمن منطقة املاكنا العثمانية التي لا ينازعنا فيها منازع الى الآن فان سلطتنا الفعلية الحقيقية لم تتجاوز صنعاء الى الشرق والشمال الا مسيرة يوم او ما لا يزيد عن الثلاثين ميلاً في الاكثر وأما ما وراء ذلك فكان ولم يزل تابعاً لنا بالقوة لا بالفعل ولا يعلم من احواله وعدد سكانه شيء الا على سبيل التخمين . والراجح ان في بلاد مأرب ونجران وأطراف اليمن ووادي دواسر (وكل هذه البلدان يجب ان تكون عثمانية ويمكن ان تكون عثمانية ولحد الآن لا تجسر دولة من الدول غيرنا ان تدعي بشيء من الحماية على شبر واحد منها) ما يزيد على المليون فوق ما يقدرون وعليه فسكان اليمن العثمانيون يزيدون الآن على الاربعة ملايين واذا تم الامن وبطلت من بينهم الحروب والمجاولات المستمرة فلا يمر الا القليل من السنين حتى يتضاعف عددهم ثم يتضاعف ويتضاعف لان في البلاد من الغنى الطبيعي ما يقوم بالملايين الكثيرة

سكان اليمن

اليمن بلاد حضارة قديمة العهد جداً ولذلك فأغلب أهاليه حضر يسكنون المدن والقرى ويعيشون من الزراعة والصناعة . وهم اهل جد ونشاط في زراعتهم لا يفوقهم احد

في ذلك على ما ارجّح حتى ولا الانكليز او الالمان اهل الكد والنشاط

انا نعجب من اهل لبنان ونشاطهم لانهم كما يقال ينقلون التراب نقلاً الى ما بين الصخور حيث يجدون مكاناً لنصبة من التين او الزيتون او غيرهما من انواع المغروسات النافعة . ولا نعلم في ولايتي بيروت وسوريا عن نشاط كنشاطهم او كد ككدهم حتى اصبحوا مضرب مثل في كل سوريا من أقصاها الى اقصاها الا ان الذين شاهدوا اليمن من ينبوهر الى هرس وزويمر كلهم شاهدوا حيران شجرة البن قائمة بعضها فوق بعض ولا قيام صفوف المدرج (الامفيتياتر) وكلهم يشهدون بالنشاط والقوة اللذين يبذلها اليمنيون في عمارة اراضيهم — نشاط وقوة لو بذل اللبنانيون مثل نصفهما لكان كل لبنان جنة واحدة متصلة الاطراف من الجنوب الى الشمال ومن الشرق الى الغرب . ان اودية اليمن — واليمن الجبلية تكاد تكون كلها اودية — تراها كلها من اسفلها الى اعلاها مدرجاً واحداً تغطي حيرانه شجيرات البن او غيرها من الاشجار ذات النشر والثمر . ولقد يبنون الجدران الحجرية القوية يعالون بها الى العشر الاقدام ويملأونها تراباً ليربحوا ما لا يزيد عرضه من التربة على خمس اقدام او ست . قال هرس عددت مائة وسبعة وثلاثين حائراً من هذه الحيران يعلو الواحد منها فوق الآخر (الحائر والحير بمعنى الجبل في لغة اهل لبنان) وكلها مبنية جدرانها بالحجر الصلد بناء محكماً لا يقل ارتفاع جدرانها عن التسع الاقدام

لو كنت مصوراً لرسمت هنا للقراء احد الرسوم التي رسمها هرس في كتابه «رحلة في اليمن » فان نظرة واحدة اليها تنقل الى اذهانهم مقدار ما يبذله اليمنيون من النشاط والكد في زراعة اوديتهم وغرسها ولعل استاذي لا يبخلان على القراء بنقل الصورة المرسومة على الصفحة الثامنة من الكتاب المذكور الى المقتطف فتكون ذخيرة لهم يغنيهم النظر اليها عن كثير من الوصف او يفهمون الكثير من الوصف بمجرد النظر اليها

طرق اليمن ومواقع مدنه

لو كان في الامكان ان انقل الى المقتطف الاغر او ينقل الينا هو رسمين آخرين من رسوم هرس وهما مقابل صفحة ١١٠ و٢١٨ من كتابه الذي اشرنا اليه قبيل الآن لاغنتنا هذه الرسوم عن صفحات من الوصف ولنقلت الى الذهن بالجملة اثراً صحيحاً عن طرقات اليمن ومواقع مدنه وقراه القائمة على شرفات الجبال وعواتقها المطلة على اوديته. قرى كثير منها ان لم نقل أغلبها وكنات نسور لا يصعد اليها الا على طريق واحدة منقورة درجاً في

الحجر الصلد فيستطيع العشرة فيها ان يمنعوا المئة من الوصول اليها والمئتين والمئة ان تمنع الالف والالفين

ولنر هرس ذهب سنة ١٨٩٢ من عدن الى اليمن مكاتباً من قبل جريدة التيمس فسار الى صنعاء عن طريق لحج وذمار وخربة جران في حديث يطول شرحه وبعد ثلاثة اسابيع وصل الى صنعاء . ثم رده من هناك مخفوراً احمد فيضي باشا قومندان المعسكر السابع وكان ارسل لكبح الثائرين بعد ان كان اشتد امرهم على حامية صنعاء وضيقوا على الاهلين الخناق فوصل هذا القائد الباسل الى عاصمة اليمن في نفس الشدة ففرج حالاً عن حاميتها وأهلها وأرسل القواد الى بقية الجهات لاسترداد المواقع التي كان الثوار قد استولوا عليها وفيما هو كذلك اذا بالمستر هرس هذا امام دار الحكومة . ورأى القائد الباسل احمد فيضي باشا ان مقتضى الحال والمصلحة يقضي بارجاعه الى حيث أتى فأرسله الى الحديدة عن طريق مناخة . وقد اخترت تلخيص ما كتبه هذا الكاتب الشاعر عن طريقه من صنعاء الى مناخة الى الحجيلا . والحجيلا بلدة في آخر بلاد الجبال من جهة صنعاء وآخر بلاد تهامة من جهة الحديدة وقد فعلت ما فعلت لانقل على أخصر طريق الى ذهن القارئ شيئاً من جمال جبال اليمن وأوديتها وشيئاً آخر من مواقع قراها وصعوبة مسالكها

قال المستر هرس ما محصله. قمنا من صنعاء صباحاً فوصلنا قهوة متنة حوالي نصف النهار فخططنا لنتغدى الظهر ونستريح قليلا ومن ثم سرنا حتى وصلنا بوان والطريق تأخذ كلها صعداً . ومن بوان اغذذنا السير فوصلنا الى سوق الخميس مساء ونمنا هناك . ولما بلغنا اعلى العقبة قبل ان وصلنا الى سوق الخميس بقليل كنا على علو عشرة آلاف قدم فوق سطح البحر

ثم اخذ يصف الطريق بين بوان وسوق الخميس وقد اخترت هنا الترجمة الحرفية تقريباً قال «الطريق بين بوان وسوق الخميس عقبة في رأس جبل تشرف شمالاً على واد كبير عمقه نحو من بضعة الف قدم. ويا له من واد ما اجمله وأفخمه واد تملأه اشجار البن ويزخر زخراً بأصناف النباتات الزاهية البهية المجيدة ومن بينها اغراس الموز بأوراقها الكبيرة الخضراء تهز رؤوسها تيهاً وادلالاً . وكنا نرى القرى بين هذه الخضرة الناضرة تتعلق بجفاف هذا الوادي ولكل قرية برجها. وكأنما كل قرية وكنة نسر تقوم على هضبة خلقت من صخرة واحدة. وكثيراً ما كنت اقف بعض دقائق لأملأ نظري واعجابي من هذا المنظر الساحر الى ان تهور النهار فتصاعدت حينئذ الغيوم من الوادي اغتية رقيقة غطت ما امامي من اسناد الوادي وأخفت عن نظري ما كنت اراه الا قمم الجبال على الجهة المقابلة فانها كانت تظهر

قائمة فوق بحر من الغيوم الملونة بألوان قوس السحاب كأنها المنائر او قبب اجراس الكنائس

« فيالك من بلاد أيتها اليمن الساحرة . اي مجلدات من السوالف والتواريخ لا تزالين تكتمين عن علمنا وبصائرنا في اوديتك هذه العظيمة واسناد جبالك الشامخة . وأية قصص كان ويكون في امكان جداولك الصافية المتكسرة ان تقصها علينا . من لا يعلم ان ماءك الزلال كثيراً ماجرى احمر مما مازجه من دم المهجات والاكباد . تسربت حنادس الليل فانقلب المنظر من امامي الى منظر سكينة رهيب . سكينة غريبة في نوعها ولكنها تسحر النفس وتملأها هيبة واجلالاً

« لما تركنا سوق الخميس في الصباح التالي كانت المناظر امامنا في جمالها ورونق جلالها كتلك التي راعت نفوسنا بالامس فما اشرقت الشمس حتى انقشعت ضبابة المساء ولاحت امامنا سلاسل الجبال سلسلة وراء اخرى وقمة تعلو قمة اخرى من ورائها الى ان علاها كلها في نهاية الافق غرباً سلسلة عظيمة شامخة حجبت عنا كل ما وراءها

« ثم اخذت الطريق تنحدر بسرعة وتتلوى بنا طويلاً فتارة ترى عليها اثراً من ترميم مهندسي الاتراك وتارة اخرى تراها بحيث تتماسك عليها الاقدام تماسكاً على جانب الجبل ليس الا

« ولقد مررنا ببقعة هنا من اجمل ما رأته عيني من المناظر في اليمن على منتصف منحدر تكسوه غابة من الشجر هنالك كان مقام لبعضهم (قبر وعليه بنية) والى جانبه ينبوع ماء عذب تتكركر مياهه الى بركة عميقة ويقوم من ورائه على مسافة قمة من الجبل جرداء صخرية ترى في الافق الازرق وعلى رأسها انقاض قرية دكتها المدافع العثمانية لم تترك منها الا الجدران تخبر بسابق وجودها . وكل منحدرات هذه القمة او الهضبة فيما دون القرية مكسوة بالشجر خميلة واحدة خضراء والمسجد المقام على القبر تعلوه القبب المهندمة البيضاء يشيب بياضها خضرة الاشجار والرياحين حولها . وصوت المياه الجارية يزيد المنظر خلابة وسحراً فوق ماهو عليه من رائع الجمال والهدو البالغ مبالغه

« انتهى بنا اخيراً صبب الطريق فدخلنا وادياً خاوياً خالياً لزمنا المسير فيه حيث يجري الماء وكان الوادي حينئذ ناشفاً ومجراه مفروش بالصخور ومع ذلك فكان الين مساً وأنعم ملمساً من الطريق الاصلية . وكانت هذه تتلوى حوالي النهر تروح وتجيء لا تكاد تبين لما فيها وحولها من الرضام والصخور الساقطة من المنحدرات فوقها

« وبعد ساعة او ما يقارب الساعة مررنا من تحت قلعة مفهاق العجيبة وهي قلعة متربعة على شاهق من الصخر يعلو نحواً من خمسمئة قدم على الوادي او ما يزيد . ثم اخذت الطريق تصعد بنا ثانية وما زلنا برهة والطريق آخذة بنا في واد او شعب صغير من اجمل الشعاب

التي رأيناها وكأنما هو مصغر لذلك الوادي الكبير الفخيم الذي المحنا اليه سابقاً . الصخور قائمة على الجانبين كأنها الجدران الى علو يتراوح بين الخمسين والمئة قدماً وقد نبت عليها انواع عديدة من الزهور البرية مما جعل الوادي لكثرة الوانه شبيهاً بالبساط العبقري او بواد من اودية الجان (Fairy-land) حامات من الياسمين تغطي اجراف الوادي. وعلى اجراف الوادي وعلى جانبيه يزهو الطلح والصبر وتتضوع روائحهما وهنالك شجرة ذات زهر كأنه زهر الدر نفل الفائح قد غرستها الطبيعة على جانبي مجرى الماء الضيق فتخال ان الانسان زرعها في مكانها هذا قصداً. مرت بنا ساعة على ما وصفنا وصلنا بعدها الى خان عجز فنزلنا نستريح ونتغدى الظهر ولم نلبث الا برهة بين الساعة والساعتين لاني كنت شديد الرغبة في ان نصل مناخة قبل العتمة فركبنا بغالنا وودعنا صاحب الخان ومن كان هناك من الجنود التركية وكانوا نفراً يسيراً فكنا كلما تقدمنا في الطريق ازدادت هذه فخامة وجمالاً لأننا كنا توسطنا الجبال حيث مناخة على قمة بعضها كوكتة نسر او كن رخمة . قلنا انا كنا نسير في مجرى نهر الا ان علو هذا المجرى عن سطح البحر كان فوق خمسة آلاف قدم. فبينما نحن نسير انقطع بنا المجرى بغتة وأخذنا نصعد في عقبة شاقة ولكن كنا بعد ما مر بنا من العقاب اصبحنا وقد اعتدنا السير في مثلها ولم تكن الطريق الا مجازاً في سند الجبل فرشت فيه الصخور الناتئة عن مقرها بساطاً غيروطيء فلم يكن يسعني ولا اظن انه يسع غيري ايضاً الا ان اعجب كيف تطيق بغالنا الصغيرة ان تصل الى آخر هذه العقبة. نزلت انا وعبد الرحمن وسعيد عن بغالنا في اسفل العقبة (وهو اولها) وأخذنا نتسابق عدواً نتسلق الصخور تارة وتندهور من عليها تارة اخرى. وما زلنا نستكدا نفسنا صعداً وقد خلفنا البغال مع المكارين الى أن صعدنا ما يزيد على الفين وخمسمئة قدم في تلك العقبة الكؤود الناتوية فلما وصلنا فوقها وكأنما وصلنا بغتة اذا نحن بمدينة مناخة الصغيرة على كتدا امامنا فعزمت ان انتظر في مكاني الى ان يصل الينا من كان يحرس علي من الجند وكنا قد سبقناهم مسافة بعيدة فرميت بنفسي وأنا حران الهث على حرف صخرة وأخذت اتأمل في ما امامي من المنظر ويا له من منظر عجيب هائل ! حوالينا من كل جهة قمم جبال جرداء غريبة الاشكال والهيئات ومهاو تكاد تكون على خط عمودي. واحدى هذه المهاوي هي التي وقعنا عليها نستريح وننتظر ومن على جانب منها كنا نرى العقبة التي صعدنا فيها تتلوى عنا والينا تارة ذات اليمين وتارة ذات الشمال وكانت البغال والمكارية تتراءى لنا كأنها النمل تتصعد عليها وكانت أشعة الشمس المشرفة على الغروب تلون قنن الجبال بلون وردي وكثير من هذه القنن كانت أعلى منا بألوف من الاقدام تتوجها القرى والابراج الغريبة في بابها مواقع وأشكالاً .

ثم لحقتنا البغال والرجال فركبنا بغالنا وقطعنا عليها المسافة القصيرة التي بقيت بيننا وبين مناخة ودخلنا المدينة آخذين في الطريق التي توصل الى مركز الحكومة حيث يقيم القائمقام وبعد ان تركت القائمقام ذهبت أتجول في المدينة يتبعني الحرس الا انه لم يكن يتعرض لي في شيء من حركاتي وسكناتي بل كنت أتجرأ على الرسم بمرأى منه لولا مخافة ان تقع عليه ملامة فيما لو شوهدت أرسم في حضرته ولذلك كنت أتحرى الوقوف او الجلوس من وراء صخر مشرف وأرسم ما أريد رسمه ولا يراني أحد

« قدر لي ان أرى أماكن كثيرة الا ان موقع مناخة كان من أغرب وأعجب ما رأيته لانها مبنية على كتف جبل ضيق هو وصلة بين سلسلتين من الجبال . وفي هذا الكتف خط مفرق المياه لواديين عظيمين جداً أولهما الوادي الذي مررنا به حتى وصلنا اليها والثاني الى الغرب منها . والكتف هذا المبنية عليه المدينة ضيق جداً حتى ان كثيراً من جدران البيوت على جانبيه من هنا وهناك تقوم على أجراف الوادي العميق تحتها. بل بعض المباني تطل على الواديين معاً فيراهما الجالس فيها في وقت واحد ومن موقف واحد

« ويزيد هذا المنظر الغريب غرابة ما حوله من القمم الغريبة الاشكال القائمة حوله وماذا اقول في وصفها ؟ انه لا يحضرني الفاظ تشف عما يدل على اشكالها وهيئاتها فانها غريبة في بابها يقف الخيال حائراً عندها . فوارع شاهقة جداً جرداء مصخرة متوعرة منتصبة كالجدران تنتهي برؤوس كأنها قوالب السكر على كثير منها المعاقل بناها الاهلون . اما كيف يصعدون اليها او ينزلون منها او من أين يستقون مياههم فيها فكل ذلك مما يوجب الاستغراب ويلقي في الحيرة والدهشة

« اما مناخة نفسها فمدينة صغيرة وربما لا يزيد عدد سكانها عن خمسة آلاف نسمة وبيوتها من حجر أغلبها ذات ثلاث طبقات وبعضها ذات أربع وسوقها عامرة تجد فيها كل ضروريات المعيشة المتمدنة وفيها مخازن كبيرة واحد او اثنان منها لرجال من اليونان تجد فيها ما تجده في مثلها من مخازن مصر والاسكندرية

« وموقع مناخة يعلو سبعة آلاف وستمئة قدم عن سطح البحر ولذلك هو عرضة للتقلبات الجوية السريعة فانه لم تمر الساعتان على وصولنا تحت أشعة الشمس الحارة حتى طبقت السماء بالغيوم بما أخفى المناظر أمامنا عن أعيننا وهبطت درجة الحرارة الى خمسين فهرنهيت فاضطررنا الى الاصطلاء بالنار على كوانين النحاس أنا ومن معي . وعند الساعة الثامنة أخذتني الحمى فجأة ولم تفارقني الى الساعة العاشرة من الصباح التالي وكنت في ذلك الحين لا أقوى على النهوض الا بمعاونة من ينهضني فتوقفنا عن السفر ولم يتصعب علي القائمقام

في المقام يوماً آخر بل بذل ايضاً كل ما في وسعه لراحتي . وبعد الظهر كنت استردت شيئاً من قوتي فخررت نقمي الى ظل بين الصخور حيث أضرم لي خادماي ناراً وطبخا قهوة

« وكان الموقف الذي مخيرته يشرف على الوادي الكبير غربي المدينة من اعلاه الى اسفله فرأيت حيران البن وغابات الموز ادراجاً بعضها فوق بعض ورأيت القرى وسطوح بيوتها امامنا كأنها رقعة شطرنج ينظر اليها اللاعب من علو . وكان على مسافة في الوادي يتراءى لنا خيط من النور الفضي ينم على نهر جار هناك عدد من تلك المنحدرات الصخرية مئات من النهيرات تتكسر مياهها على الصخور او تهبط من فوقها على طريقها لتلتقي بالنهر الكبير في اسفل الوادي . ثم من وراء ذلك كان ضباب رقيق حجب اختفت عنا الوانها فصارت كأنها الغيوم ولكنها جميلة جمالاً لا يفصح عنه باسان

«الا ان أهمية مناخة ليست في جمال مناظرها وجلالها بل هي في موقعها الحربي لأن نقطتها تتسلط على الطريق السلطاني ما بين الحديدة وصنعاء وهي على نصف المسافة بين المدينتين تقريباً ومن أصلح النقط لحفظ خط المواصلة بين الساحل وصنعاء قلب البلاد اليمنية

من مناخة الى الحجيلاء

« قمنا باكراً في الصباح التالي نقصد الحجيلاء . والطريق في أثناء الاميال الاولى تأخذ في جانب الجبال على الجهة الجنوبية من الوادي وتذهب صعداً بالتدريج ساعة او ما يزيد حتى يبلغ ارتفاعها ثمانية آلاف قدم فوق سطح البحر وهناك تقطع ضهراً من الارض بقرب قرية الهجرة ثم تأخذ بالهبوط

« وقرية الهجرة هذه مبنية على تشز ترتفع اسناده من كل جهة كالجدران وظاهر القرية يدل على انها قرية كبيرة ذات اهمية فضلا عن ان موقعها حصين جداً. وأما البلاد حولها فجميلة جداً — مياه كثيرة ولا ينقصها الشجر ايضاً

« لم نلبث الا قليلاً بعد ان تركنا الهجرة الى يميننا وأخذت الطريق تنحدر بنا حتى ظهرت لنا قرية اخرى اعجب وأغرب من القرية التي تركناها. والقرية يقال لها عطرة . اما موقعها فعلى مرتفع من الارض تحيط به من كل جهاته الحيران المدرجة ثم من وسط هذا المرتفع ينهد قرن من الصخر يذهب صعداً في الهواء مئات من الاقدام وينقسم في منتصفه على خط عمودي الى قسمين يعلوان معاً وعلى رأس كل من القسمين بيت كبير ذو طبقات او معقل يلجأ اليه . والناظر الى هذين المعلقين لاول مرة يذهب ذهنه بادىء بدء الى السؤال كيف يتوصل اليهما فان العين لا ترى طريقاً لها ويصعب على الناظر ان يصدق ان ثم طريقاً وقد اخبرني رفاقي ان الطريق اليهما في سلم منقور درجاً في الصخر — وعلى قاعدة

القرن بقية بيوت القرية تلتف حواليه. اجتزنا عطرة والطريق تتلوى بنا على جانب الجبل وما زلنا كذلك حتى وصلنا الى قهوة ويزل قبل الظهر بقليل. وموقع ويزل غريب جداً (نظير اكثر مواقع قرى اليمن) فانها على شفا جرف تحتها عميق جداً. اما المكان بالذات فحقير وهو أكواخ مغطاة بالحصر والكلأ للاستظلال بها وهناك جينة صغيرة فيها بعض الحيران يشرف الناظر من جدرانها الى الوادي العميق تحتها على خط عمودي تقريباً فجلسنا تحت شجرة ظليلة على بساط بسطناه تحتنا نروح نفوسنا ونمتع أعيننا بما حوالينا من المناظر الفخيمة وكنا في موقفنا اذ ذاك نعلو أربعة آلاف وخمسمئة قدم فوق سطح البحر وأمامنا مدرجات من حيران البن لم نر ما يماثلها الى الآن فان زراعة البن على أجودها في هذه الجبال ولا سيما على اسناد سلسلتي جبل مسار وصفان (Safan) الى الشمال منا والجبال فوق هذه الحيران تعلو صعداً في الهواء كالجدران ويكاد يكون على كل قمة من قممها قرية وحصن من القرى والحصون التي مرت بنا الاشارة الى وصفها فيما سلف. تركنا ويزل والطريق عقبة تنحدر وتتلوى بنا على سند الجبل الا ان آثار العمارة ظاهرة عليها فان الاتراك وسعوا الطريق هنا وزرعوا الاشجار على جانبيها للظل ولمنع التربة من ان يجرفها السيل وما زلنا نمشي حتى وصلنا مجرى النهر في الوادي فلقينا حينئذ من المشقة أشدها لان المجرى وهو الطريق كان غاصاً بالرضام والصخور المدماكة الى حد لم تكن البغال تقوى فيه على السير الا بصعوبة شديدة فاضطررنا الى ان نمشي على أقدامنا وما زلنا نمشي والمجرى يتضايق الى ان صار مضيقاً لا يزيد عن مجرى السيل والصخور تعلو على جانبيه كالجدران الى ما يقارب الثمانين قدماً. واستمر بنا المسير كذلك مدة الى ان تخلصنا من المجرى وصعدنا في تلة صخرية عن شماله. وبعد ان جزنا متناً صغيراً سهلاً أخذنا ننحدر نحو قرية الحجيلاء فوصلناها بين الساعة والساعتين قبل الغروب. وفي هذه القرية تغيرت علينا المناظر وتغير الهواء. شارفنا تهامة وودعنا جبال اليمن العظيمة وأوديتها الخصبة الجميلة».

(راجع كتاب هرس — رحلته في اليمن — من صنعاء الى مناخة والى الحجيلا)

ان المستر هرس كتب كتابة شاعر حرّكت نفسه عظمة الجبال وجمال الاودية ومع ذلك فالمطلع على ما نقلناه عنه هنا تارة تلخيصاً وتارة ترجمة بالحرف تقريباً فانه يتصور صورة جلية تقرب من الحقيقة عن بلاد اليمن وجبالها وأوديتها وصعوبة مسالكها وحصانة مدنها وقراها. ويتهيأ لما جعلنا ما كتبناه الى الآن توطئة له من أهمية البلدان العربية في المملكة العثمانية الدستورية وأهمية اللغة العربية فيها اي في المملكة وموعدنا بكل ذلك الاعداد القادمة ان شاء الله

خاتم المارد وبساط الريح وقبع الاخفاء (١)

جاء في قصص الف ليلة وليلة وفي أخبار الملك سيف ذكر ثلاثة أشياء عجيبة غريبة لما لها من الخواص والصفات الخارقة المعتاد الاول منها خاتم المارد ومن خواصه ان حامله اذا فركه بيده مثل أمامه مارد من المردة العظام يقول له لبيك يامولاي ماذا تريد فان قال اريد طعاماً او شراباً او لباساً احضره له في الحال. او قال اريد ان تبني لي قصراً تحيط به الجنات وتجري من تحته الانهار وفيه احسن الرياش والاثاث وفيه العبيد والجواري على مراتبهم في الخدمة لم يلبث ان فعل له ذلك لا فرق بين ان يكون القصر في البر فوق مرتفعات التلال الخضراء او في البحر على شاطئات الجزر الغضراء

والثاني بساط الريح ومن خواص هذه الاداة ان تقطع بصاحبها المسافات الشاسعة التي لا يمكن ان تقطع بواسطة أخرى فاذا ضرب بساط الريح صاحبه لباه المارد الموكل به يقول امرك يامولاي ماذا تريد فيقول مثلاً انقلني الى مدينة كذا الى قصر ملكها الى غرفة منامه فينقله بأسرع من لمح البصر. وقد يحمل بساط الريح صاحبه فوق بحار من الظلمات لا يهتدي فيها او فوق اراض مسحورة يستحيل قطعها لولا هذا البساط وما له من الخصوصية الباهرة

الثالث قبع الاخفاء ومن خصوصياته ان صاحبه اذا لبسه اختفى عن الاعين فأصبح يرى ولا يُرى. وربما باغته مباغت من عدو مشاكس او سبع مفترس فيظن انه صار في قبضته لكن بينما هو يبسم ابتسامة المنتصر الظافر اذا بخصمه صاحب قبع الاخفاء قد غاب من امامه بغتة وتركه يحرق اسنانه من شدة الغيظ ومرارة الخيبة

يقولون ايها السادة والسيدات ان كاتب الف ليلة وليلة رجل حكيم عاقل اشبه بالفيلسوف بيدبا صاحب كتاب كليلة ودمنة. فبعض حكاياته وان ظهرت للعامة بمظاهر اللهو والخرافات يقرأونها ترويحاً لنفوسهم ومجاراة لاوهامهم وتخيلاتهم هي عند التحقيق يشار بها الى حقائق حقة وعادات مرعية وآداب متبعة

وأحق قصصه بالتفسير والتأويل خبر هذه الأشياء العجيبة فانه لم يرم بها على المخيل ولا اراد بها مجرد ايهام الجمهور وترويض مخيلاتهم تمريناً لها على قبول الغرائب والمستحيلات

---

(١) خطبة الاستاذ جبر ضومط استاذ العربية في المدرسة الكلية السورية الانجيلية في بيروت القاها في مدرسة البنات الاميركية في حفلة اعطاء الشهادات

الخوارق كذا يقول كثيرون من جلة أهل العلم والنظر على ما سمعت فأرجح من ثم انه أشار بهذه الادوات الثلاث الى معان وظواهر لاريب في وجودها تنطبق اوصافها على اوصاف هذه الادوات

دعونا اذن ننظر في تأويل هذه الادوات وبيان ما تشير اليه. اخاف ان تهزأوا بي ايها السادة والسيدات وتعدوه من السخف ان تؤول هذه الاقاصيص كما تؤول كتب الحكمة والفلسفة . وقد لا يبعد ابتداء ان تقولوا في سركم ماذا أصاب هذا الرجل . متى خولط في عقله. الخاتم المارد وبساط الريح وقبع الاخفاء تشير الى حقائق معنوية وجودية. ما سمعنا بهذا من قبل . بل غاية ما نظنه انها من خرافات المخيلة وهو الحديث . وانكتة فيها إن كان فيها نكتة انما هي غرابة تصور كاتبها وبعد تخيلاته. لا تتعجلوا في الحكم ايها الشبان الادباء والسيدات الاديبات ولا تظنوا بي الظنون ايها الفضلاء والعقلاء. انما ارعوني سمعكم قليلاً وليسعني حلمكم وصبركم بضع دقائق فأبين في خلالها مغازي ما يراد بهذه الادوات العجيبة

خاتم المارد على ما يظهر من القصة واسطة بين من يحصل عليه وبين المارد اي بينه وبين قوة عظيمة موجودة غير منظورة . وكذلك بساط الريح وقبع الاخفاء. افرك خاتم المارد بيدك فيحضر المارد بين يديك يقول اطلب ما تشاء أحضره لك باسرع من لمح الطرف . اضرب بساط الريح بالعصا التي أعطاكها المارد فيخف المارد لاجابتك ويحملك الى حيث تشاء ويقطع بك مسافة لا يمكن ان تقطعها بدونه . البس قبع الاخفاء فيحضر ذلك المارد وبقوته الخاصة يرد العيون عن ان تراك ويقيك المكائد والاضرار التي لولاه لوقعت بك . ترون اذن من القصة ان المارد الذي يمثل بين يديك لخدمتك اذا فركت الخاتم هو نفس المارد الذي يحملك على بساط الريح ويقطع بك المسافات التي لا تقطعها بدونه وهو الذي اذا لبست قبعه يواريك عن عيون الاعداء ويقيك المكائد والاضرار التي كانت لتقع بك لولا وقايته

وعليه فالخاتم والبساط والقبع انما هي أسباب محسوسة اذا امتلكت امتلك بامتلاكها قوة عظيمة جداً يعبر عنها بمارد فيكون طوع إرادتنا نحضره عند الحاجة ونصرفه عند الاستغناء عنه . وفضلاً عن كون هذه الادوات اسباباً اذا حصلنا عليها حصلنا على القوة هي أيضاً عبارة عن ثلاثة انواع من الخدمة التي يصرف المارد في قضائها لا تتشوف النفس الى أكثر منها . لي بعد شيء أقوله وهو اذا قرأتم القصة وأمعنتم النظر فيها جيداً ترون الكاتب لم يغفل عن ان يلمح الى ان هذه الادوات والاسباب المحسوسة يمكن ان يفقدها

صاحبها واذا فقدها فقد مع فقدانها قوة المارد أيضاً مع انه يبقى هو هو

أرى وقد قلت ما قلته ان مغزى القصة لا يصعب بعد فهم المراد منه فان المارد عبارة عن قوة حقيقية وجودية كنى بها صاحب القصة عن قوة العقل البشري وهذه القوة هي من أعظم القوات الطبيعية في هذا الكون وما سواها من القوات خاضع لها لا يقوى على معارضتها فاذا سلمنا بذلك لم يبق شك في ان الادوات الثلاث يراد بها الاسباب المحسوسة التي اذا حصلنا عليها كانت القوة العاقلة قوة العقل البشري في ملكنا وطوع ارادتنا نستطيع التصرف بها في ما نشاء وعلى ما نشاء . والاسباب المحسوسة التي بامتلاكها تتمكن من امتلاك قوة العقل هي المال في مظاهره المعروفة . فالمال اذن هو المراد من خاتم المارد وهو المراد من بساط الريح وهو هو المراد من قبع الاخفاء . افركوا المال بأيديكم افركوا هذه التي يقال لها الليرات الانكليزية او العثمانية او الفرنسوية فيقول لكم المارد أعني قوة العقل الانساني لبيك لبيك ماذا تريد. قولوا لهذه الليرات صيري طعاماً وشراباً فتصير. قولوا لها صيري اثاثاً ورياشاً وزينة فتصير . قولوا لها صيري قصوراً تناطح السحاب وفيها العبيد والاماء والجواري والخدم والحشم على مراتبهم فتصير . قولوا لها صيري حدائق وجنات تجري من تحتها الانهار فتصير. قولوا لها صيري مركبات وخيولاً وحراباً وبنادق ومدافع فتصير . قولوا لها صيري جيوشاً جرارة لا يعرف أولها من آخرها وازحفي على الصين والهند وقلب افريقية واخضعي تلك البلدان او عمري تلك المجاهل واستخرجي ما بها من الخيرات والكنوز الطبيعية فتطيع صاغرة . قولوا لليرات صيري مدارس ومعابد صيري ملاجىء للفقراء ومستشفيات للمرضى صيري سككاً حديدية ومعامل صناعية وتلغرافات وتلفونات ومراكب شراعية وبخارية بل قولوا لها صيري ما يمكن ان يخطر لكم ببال مما في قوة العقل البشري ان يوجده فتصير بالحال الى ما أردتم

فالمال اذن هو خاتم المارد الذي عناه صاحب القصة وهو أمر حقيقي وجودي لا مجرد اوهام وتخيلات يحلم بها الجاهل ويتفكه باستحالتها العاقل. تقولون لي فهمنا تأويلك لخاتم المارد وهو تاويل حق لا يستطاع انكاره لان المشابهة ظاهرة تمام الظهور لكن كيف تؤول بساط الريح قلت اليس المارد الذي يحضر عند فرك الخاتم هو نفس المارد الذي يحضر عند ضرب بساط الريح. فاذن ليس بساط الريح الا نوع خدمة مختلفة في الاعتبار فقط عن خدمة الخاتم وعليه فلننظر في خصوصية هذه الخدمة وفيما اذا كان يمكن تطبيقها على خدمة اخرى من خدم المال. بساط الريح يقطع بصاحبه على ما في القصة المسافات المسحورة التي لا تقطع بدونه. كذلك المال يقطع بصاحبه مسافات مراتب الهيئة الاجتماعية المسحورة التي لا يمكن ان تقطع بدونه . أي مسافة ابعد من المسافة بين رتبة العامة ورتبة الخاصة ؟ ام اي مسافة اشد هولا من المسافة التي بين

رتبة الصعاليك الفقراء ورتبة الامراء؟ هذه المسافة هي المسافة المسحورة وكل رقى وطلاسم التراتيب البشرية مقامة على ابوابها تمنع من تجاوزها وتخطر على غير اهل الرتبة ان يصلوا اليها . قولوا لي متى كان يستطيع الفقير السوقة ان يقطع المسافة التي بينه وبين الاعيان من الكبراء والعلماء والامراء. مازالت هذه المسافة ولن تزال بعيدة مسحورة لا يستطاع قطعها الا بهذا البساط « بساط الريح » الذي هو عبارة عن المال الكثير ورمز اليه

لا تزعموا ايها السادة ان كلامي على سبيل المبالغة والتهويل. انظروا الى الانكليز وهم من ارقى الشعوب المتمدنة في الحال فان بين سوقتهم وبين خاصتهم من التباين والتباعد ما لا يعرفه الا من خبر القوم وعرف عوائدهم . فان الخاصة يرون من أكبر العار عليهم ان يخالطوا السوقة او يجالسوهم في حال من الاحوال . لكن هؤلاء السوقة اذا حصلوا على الغنى فتح لهم الخاصة من الاعيان والكبراء والعلماء والامراء صدورهم وقصورهم ومنتدياتهم على اختلاف انواعها . وبعبارة اخرى نقول ان الغنى يمكن اهله عند هذه الامة العظيمة من قطع مسافة رتبهم الاجتماعية مهما كانت تلك المسافة بعيدة . واذا اغتنى الفقير بينهم امكنه ان يصل الى اعظم الرتب وأشرفها على حين كانت طريقها مسحورة عليه من قبل لا يستطيع ان يخطو فيها خطوة واحدة . هذه ايضاً الامة الاميركانية والرتب الاجتماعية لا أثر لها في نظاماتها السياسية والقانون يصرح بتساوي كل فرد من افرادها في جميع الحقوق المدنية ومع ذلك لاغنيائها مرتبة ممتازة لا يوصل اليها الا بالغنى . فمرتبة او طبقة الاربعمائة في نيويورك معروفة مشهورة وأهل هذه الطبقة على ما هو معروف مستقلون بمعاشراتهم وجمعياتهم واجتماعاتهم وليالي لهوهم ومسراتهم لا يطمع احد ان يشاركهم فيها او يصل اليها الا ببساط الريح اعني المال . راجعوا تاريخ انكلترا ترون انه كان بين عامتهم بوجه الاجمال من جهة وبين خاصتهم وأشرافهم من جهة اخرى مسافة مسحورة في الحقوق والامتيازات ما كان يستطاع قطعها بوجه من الوجوه لكن الفضل كل الفضل في ازالة هذه المسافة وفك طلاسم سحرها انما كان لبساط الريح اعني المال . راجعوا تاريخ الامة اليونانية فان حكيمهم الشهير صولون جعل التفاوت بين طبقاتهم على نسبة التفاوت في المال فجعل المال بساطاً يطير به صاحبه من رتبة الى رتبة اعلى منها الى ان يصل الى اعلى الرتب الممكنة . راجعوا تاريخ الامة الرومانية العظيمة فانها كانت تقسم الى طبقتين طبقة العامة او البليبيان وطبقة الاشراف او البتريشيان وكانت المسافة بين هاتين الطبقتين مما لا يمكن تجاوزه الا ان بساط الريح مازال ينقل البليبيان واحداً بعد الآخر الى طبقة البتريشيان حتى ازال طلاسم هذه المسافة وكسر ابوابها التي كانت تحول دون عامتهم

ودون منزلة الشرف التي كانت لخاصتهم

بقي علي تأويل قبح الاخفاء وبيان المراد منه وأراني لا احتاج الى تعب في اقناعكم انه يرمز به الى المال ايضاً انما الصعوبة في بيان وجه الخدمة التي تقصد من قبح الاخفاء . على ان من راجع القصة وتأمل المنفعة التي كانت تحصل لصاحب هذا القبح راى كل ذلك منطبقاً على القول المشهور وهو ان المال يستر معايب صاحبه فلا يناله مضرة المذمة وقبح الاحدوثة التي لا بد منها اذا ظهرت المعايب وكثر تحدث الناس بها . هذا صاحب المال اذا كان جباناً واستحق المذمة على جبانته ستر المال هذه الخصلة فلم يظهر جبنه بل قد يعدون الجبانة منه تبصراً وروية واحجاماً في موضع الاحجام. وكذلك البخل فيه فقد لا يرونه منه بخلاً ويتأولون له مظاهر البخل انها مظاهر اقتصاد وحسن تقدير . وقس على ذلك سائر المعايب فان المال يسترها على صاحبها فيوقى بذلك من المذمة والعار اللاحقين باهل هذه المعايب

انظروا الى الحمقى من الاغنياء الطياشين الذين يجري على السنتهم ما يخطر في قلوبهم فان غالب الناس لا يرون ذلك حمقاً منهم ولا طيشاً أو تسرعاً يستوجبان التنقص والازدراء انما يحسبون ذلك لهم من باب حرية الافكار وبغض الرياء والنفاق . وبالاجمال فأكثر النقائص والمعايب التي تعتد على الفقراء والسوقة من الناس اما ان تخفى عن العيون فلا يرونها في الاغنياء اصحاب الاموال الكثيرة واما ان تنقلب صفتها فيرونها فضائل فيهم وكمالات . نعم هذا من شرور الغنى لا من منافعه ولكنه خدمة من خدم المال لصاحبه بمنع العيون من رؤية مقابحه وتقيه شر تبعتها فيما لو ظهرت في مظاهرها الحقيقية

لا احتاج ان اذكر لكم كل انواع الوقاية التي يقيها المال اهله والاضرار التي يصرفها عنهم بما هو مشاهد من الوقائع الكثيرة والحوادث التي تعرفونها قديماً وحديثاً فانها من الكثرة ما لو اردت تعدادها لاقتضى لي في سردها ايام قبل ان آتي على آخرها . انما يمكنني ان اذكر لكم ما يعرفه كل منا باختباره وهو انا في غيبة اصحاب المال نغضب من نقائصهم وأعمالهم الشاذة وتبلغ بنا الحدة الى ان لا نبقي ولا نذر في ثلبهم والتنقص منهم حتى يخيل للسامع انا اذا التقينا بهم لا يصرفنا صارف عن تقريعهم بمعائبهم في وجوههم وايقاع كل نوع من الاذى والاهانة بهم لكنا اذا التقينا بهم ورأينا ابهة غناهم نسينا كلما قلناه فيهم وأخذنا في مجاملتهم والثناء عليهم على عكس ما ظهر منا في غيبتهم بل ربما نزيد في المديح والتملق لهم في حضرتهم اضعاف ما كان منا من ذمهم ومجافاتهم في الغيبة . ما الذي اوجب كل هذا التغير فينا . ما الذي اوجب كل هذا التغاضي بل ما الذي اوجب كل

هذا العمى والتعامي الغريب العجيب حتى انا لا نرى فيهم الآن شيئاً مما كنا نراه قبيل اجتماعنا بهم . ذلك لانهم يلبسون على رؤوسهم في بيوتهم ومجالسهم قبع الاخفاء وبعبارة اخرى ابهة المال وزخارفه فلا نعود نرى فيهم شيئاً من المعايب التي كنا نتهمهم بها . وهذا مساو لاختفائهم عن اعيننا وموافق كل الموافقة لما آل ما يذكر عن خصائص قبع الاخفاء

لا يؤخذ علي من كلامي ان الاغنياء اصحاب الاموال الكثيرة هم شر من غيرهم من بقية الناس حاشا . حاشا لله ان اتهمهم هذه التهمة التي يميل الى ان يتهمهم بها كثيرون من المتفاصحين . بل الذي اعتقده فيهم انهم بوجه الاجمال خير مما يظن فيهم ومنهم من هو افضل الناس وأكرمهم نفساً وأسخاهم يداً وأحرصهم على نفع القريب ورفع شأن الانسانية. ولا أقول ذلك تزلفاً او لان قبع الاخفاء يمنعني الآن من رؤيتهم انما اقول الحق الواقع على ما اعتقد . والذي يتحصل من كلامي ان الهيئة الاجتماعية لا ترى من عيوبهم ما تراه من نفس هذه العيوب لو كانت في غيرهم . ثم هي لا تستطيع ان توصل اليهم الاذى الذي تستطيع ان توصله الى غيرهم من افرادها لا ان عيوبهم اكثر من عيوب غيرهم

ايها السادة والسيدات الكرام انتهيت الآن من تأويل المراد من هذه الادوات الثلاث التي وردت في بعض الكتب والتي يظن بها انها كتبت هناك لمجرد الفكاهة واللهو من غير ان يتوجه خاطر كاتبها الى ظاهرة من ظواهر القوات الطبيعية التي تؤثر في احوال المجتمع الانساني . والذي اقوله الآن انه ان سلم بهذا التأويل الذي اولته من انه يراد بالمارد قوة العقل البشري وأنه يراد ايضاً بهذه الادوات الثلاث المال في جميع مظاهره وأن الخواص التي نسبت اليها انما هي اشارة الى انواع الخدم التي يستطيع صاحب المال ان يستخدم العقل البشري من اجلها . ان سلم بهذه كلها فليس اذن شيء من المبالغة فيما ذكره صاحب كتاب الف ليلة وليلة ونسبه الى هذه الادوات . اي مبالغة في ان العقل البشري من اعظم القوات الطبيعية في هذا الكون . اي مبالغة في انه اعظم من القوة المغنطيسية وأنه اعظم من القوة الكهربائية او انه اعظم من قوة النور والحرارة ؟ بل هو اعظم وأقوى من جميع هذه القوات مجتمعة معاً لانه يعرف هذه القوات وهي لا تعرفه ويستطيع استخدامها بحسب ارادته ولا تستطيع هي ان تستخدمه. والى الآن فقد استخدم كثيراً منها وذللها حتى اصبحت طوع ارادته يلعب بها كما يشاء . ولا شك ايضاً انه سيتمكن في المستقبل من معرفة خواص هذه القوى وتذليلها في قضاء حاجاته فوق ما عرف وما ذلل منها الى هذه الساعة. ثم لما كان المال في ما مضى وسيكون في ما يأتي اشبه بالبطارية الكهربائية او القنينة الليدنية يدخر فيه من قوة العقل كما يدخر في تلك من القوة الكهربائية كان امتلاك المال عبارة

عن امتلاك تلك القوة العجيبة الغريبة اعني قوة العقل الانساني . اذن لا يستخف احد بالمال لان من استخف به فقد استخف بالعقل البشري و بثمرات العقل البشري. وليحرص عليه من هو في يده لان هذه الليرة مثلا ليست بعد ذهباً أي مادة جامدة ميتة بل هي بمثابة العقل أو الرجل الحي العاقل يخدمك بقوة عقله على نسبة ما هو مذخور فيها من القوة . ولذلك فربما تكون لك هذه الليرة عاملا اعتيادياً يخدمك عشرين يوماً او صاحب احدى الصناعات المتعارفة كالنجار والبناء والحداد والحائك وغيرهم يخدمك اسبوعاً كاملا من الصباح الى المساء وربما تكون حاسباً ماهراً او كاتباً بليغاً او طبيباً حاذقاً يخدمك كل منهم بما يساوي القوة المذخورة فيها من قوى عقله

ايها السادة والسيدات الكرام لو كنت على منبر الوعظ لقلت ما اقوله الآن ان من يستخف بالمال يستخف بأعظم انعامات الله عليه ومن ينفقه جزافاً في غير موضعه يخطىء ايضاً لانه لم يحسن استعمال ما خوله اياه الله . فالمال المال فانه وديعة الله عندنا كما ان العقل وديعته ايضاً وهو بعد الصحة من اعظم النعم التي ينعم الله بها على مخلوقاته . وصاحبه كان ولا يزال موضوع التجلة والكرامة بين اهله وقومه ومعاصريه له المقام الاول بينهم ان قال اصغى الناس لقوله او امر تبادروا الى طاعته. وعلى كثرة الاغنياء في الامة تتوقف عظمتها وارتفاع شأنها ونفوذ كلمتها واتساع متاجرها وامتداد سطوتها في المعمور. وعلى كثرة الاغنياء ايضاً يتوقف غالباً اتساع الامة في المبرات وأنواع الاحسان ورفع شأن الانسانية . فالمعابد العمومية والمدارس الكلية والمستشفيات للمرضى والملاجىء لليتامى وبيوت العجزة كل هذه للاغنياء فيها اليد البيضاء والفخر الباقي مدى الدهر. وبالاختصار اقول ان المقام الاول في الهيئة الاجتماعية كان ولا يزال للمال ولاصحاب الاموال الكثيرة

ايها السادة والسيدات الواقع المشاهد يصدق الحكم الذي قلته من ان المقام الاول في المجتمع الانساني انما هو للمال ولاصحاب الاموال . وليس بعد الواقع المشاهد حجة لمحتج او تعليل لمتعلل ومع ذلك فتعزيزاً لما ذكرته دعوني اورد لكم في هذا الصدد كلام اعظم رجال انكلترا في أواخر هذا القرن اعني به اللورد بيكونسفيلد او المستر دسرائيلي المشهور فانه في روايته المشهورة بتنكرد وهي الرواية التي أودع فيها معظم فلسفته وأفكاره الخطيرة يورد مشهداً جرى فيه حديث بين اللورد تنكرد ابن دوق بلامنت وبين ابنة رجل من أغنياء الاسرائيليين فساق الحديث مساقاً جعل فيه الابنة تسأل هذا العظيم الانكليزي السؤال الآتي فتكرموا بالانتباه الى ما سألته هذه الفتاة

والى ما اجابها به الشريف الانكليزي مما يدل على رأي اللورد بيكونسفيلد واعتقاده . قالت الابنة تخاطب اللورد تنكرد : ولكن ارجو من فضلك ان تخبرني لاي شيء المقام الاول عندكم في اوربا. فصمت هنيهة ثم قال وقد احمرت وجنتاه خجلا يظهر لي ان المقام الاعلى للمال. هذا هو رأي اللورد بيكونسفيلد وهو صريح لا يدخله شبهة ولا يقبل التأويل بوجه من الوجوه في ان المقام الاعلى في اوربا بل وفي امريكا وآسيا وأفريقيا وأوستراليا انما هو للمال

قوة المال على نسبة كثرته وكثرته تتوقف على كيفية اكتسابه وانفاقه. اما اكتساب المال فمطلوب منكم ايها الرجال لا من السيدات واكتسابه موقوف على النشاط والامانة والاستقامة . يظن كثيرون انهم يحصلون المال بالاماني وهم نيام فيحتقرون الصنائع ويترفعون عن الاستخدام الا اذا كانت الخدمة شريفة كما يزعمون وشرفها بكثرة المعين لها وربما صرفوا قبل ان يحصلوا على هذه الخدمة الشريفة السنين الطوال في الكسل والنوم . فليذهب أمثال هؤلاء الى الولايات المتحدة وليتعلموا النشاط من تلك الامة العظيمة فان رجالها لا تعرف معنى الملل ولا تشعر بالكلل وهم لا يحتقرون صناعة ولا يترفعون عن عمل مشروع. وجواب احد عظمائهم لمن عيره بأنه كان مساح احذية جواب مشهور متعارف يفتخرون به ويعلمونه صبيانهم في مدارسهم . وأما كيفية انفاق المال فتهم معرفتها الرجال والسيدات ولا سيما السيدات. ايها الشبان في زمن شبابكم قبل ان تصيروا أصحاب بيوت احترزوا كل الاحتراز كيف تنفقون ما تكسبونه من المال فانكم اذا كنتم تنفقون اكثر مما تكتسبون مسرعون الى الخراب والعار وكذلك اذا كنتم تنفقون ما تكتسبون لا تبقون منه فضلة تذخرونها . ايها السيدات بعد ان تصرن ربات بيوت احرصن كيف تنفقن مداخيلكن . على كيفية انفاق مداخيلكن . يتوقف فضلكن وظهوركن وظهور رجالكن في مظاهر الكرامة والاعتبار. على كيفية الانفاق يتوقف أيضاً مستقبل اولادكن فاما ان يشبوا للنباهة وحسن الذكر او يعيشوا او يموتوا في الخمول والفقر

في كيفية انفاق المال تراعى امور كثيرة يستحيل علي ان اذكر الآن جميعها فأذنوا لي اذن ان اذكر منها امرين احدهما ينبغي تجنبه والآخر ينبغي الاخذ به . تجنبوا اقول ذلك للرجال عموماً وللسيدات خصوصاً تجنبوا البذخ . ومعنى البذخ ايها السيدات ان تتكلفن محاكاة من هن اغنى منكن في ما هو من خصائص طبقتهن فتطمحن الى مجاراتهن في البيوت الواسعة والرياش الفاخر واستخدام الخدم والتأنق في اللباس والزينة واقامة الولائم والحفلات . السيدة الفاضلة السيدة الكريمة التي هي اهل لكل اعتبار وكرامة هي

السيدة التي تعرف درجة غناها وتدبر بيتها بما تقتضيه الحكمة فتصرف النظر مطلقاً في جميع نفقاتها عن ان تتشبه بجاراتها اللواتي هن اغنى منها . السيدة الفاضلة تصرف النظر عن التشبه او البذخ لانها تعلم ان هذا التشبه يلحق بها الاستهزاء والسخرية اولا ويوصلها الى الحاجة والفقر ثانياً

لا استطيع ايها السيدات ان اضع لكن قواعد للانفاق انهي في بعضها وآمر في بعضها ولا هو من خصائصي ايضاً بل كل سيدة ينبغي ان تكون هي الآمرة الناهية في بيتها لنفسها وفقاً لحكمتها . لكن مع ذلك لا يضر السيدة الفاضلة الحكيمة ان تعلق في بيتها آية تذكرها دائماً ان تتجنب البذخ او التشبه الفارغ الذي يوصل الى الخراب اخيراً. هذا ما يجب على كل سيدة ان تتجنبه . وأما ما يجب عليها ان تتمسك به وتعمل بموجبه فهو «حسن التدبير» وأريد بحسن التدبير ان تقدر السيدة بحسب حكمتها المبلغ الواجب ان تنفقه والذي في طاقتها ان تنفقه من مدخولها. وعلى ما يقوله الحكماء الاقتصاديون لا ينبغي ان يزيد هذا المبلغ عن ثلاثة ارباع مدخولها في السنة او اربعة اخماسه في الاكثر. ثم تنظر في الوجوه التي ينفق فيها هذا المبلغ من الطعام والشراب واللباس وأجرة البيت وبقية النثريات الاخر المتعددة التي تدخل في حساب نفقاتها فتصرف الى كل من هذه الوجوه من ذلك المبلغ الذي قلناه القدر اللائق به تجري في ذلك على نسبة معينة ثابتة لا تتجاوزها . فانها ان فعلت ذلك شملت السكينة بيتها وحل فيه السلام والمسرة والهناء. ثم لا يلبث ان يجتمع عندها من فضلات مدخولها الذي كانت تذخره من سنة الى اخرى شيء يكون قوة لها ولبيتها تستخدمه في كل مقصد شريف ومرضي لله والناس

ايها السادة والسيدات اردت بخطابي على طوله وعرضه ان اقول ما يقوله كل معلم من معلمي هذه الامة وكل معلمة من معلماتها لتلاميذها . بل اردت ايها السيدات نائلات الشهادة أن اقول لكن ما كان يقوله لكن معلماتكن الفاضلات صراحة او ضمناً بصريح القول او بحسن العمل والقدوة كل هذه السنين التي صرفتها تحت مناظرتهن وما آل هذا القول وخلاصته هو هذا . المال قوة . المال نعمة من أعظم نعم الله بعد الصحة فايا كن أن تحتقرنه بانفاقه جزافاً او ان تعرين منه. اجتهدن في تحصيله كلما مكنتكن الفرصة ومقتضيات الزمان والمكان من ذلك وابذلن دائماً جهدكن ورويتكن في ان توفرنه بكل واسطة شريفة. لكن بقدر ما نوصيكن ان تحصلن المال وتوفرن المال نوصيكن ايضاً ان لا تعبدن المال لان عابد المال يخسر الدنيا والآخرة والسلام

اللغة العربية

ما اخذت وما اعطت

خطبة تليت في الكلية الاميركية ببيروت

ايها السادة لا بد لي اولاً من بيان ماهي اللغة العربية او ما هي خصائصها ومقوماتها قبل ان استطيع ابيّن على وجه مفهوم مقبول ما اخذت عن غيرها من اللغات وما اعطته لهن

اللغة العربية نظير كل لغة من اللغات الحية المرتقية لا بد فيها من امور جوهرية لا يجوز اهمالها ولا الاخلال بها. وهذه الامور الجوهرية تبقى من جيل الى جيل لا تتغير في شيء عما كانت عليه انما تنمو وتتفرع تبعاً لناموس الارتقاء بما يخيل معه لغير العارف المحقق ان قد حصل فيها انقلاب وتغيير والحقيقة غير ذلك . فان اهملت هذه الامور الجوهرية او أخِلَّ بها وقفت اللغة عن النمو او تراجعت الى الوراء وانحطت عما كانت عليه . ويتزايد التراجع والانحطاط على نسبة الاخلال بهذه الجوهريات او اهمالها والتنكب عنها . وفيها ايضاً امور دعونا نسميها عرضية قد تكون اليوم ولا تكون غداً ووجودها اليوم ان وجدت لا يشين في عروبة اللغة ولا يزين كما ان سقوطها غداً لا يضر بكيانها ولا ينقص من حيويتها فهي منها اشبه شيء بالورق او بعض الغصون والزوائد من الشجرة الكبيرة . فكما ان بعض اوراق الشجرة اذا تساقطت او بعض اغصانها اذا تشذبت او تهذبت لا يضر بحيوية الشجرة ولا بسلامتها كذلك تلك الامور العرضية اذا تساقطت من اللغة اليوم او قطعت منها وطرحت غداً لا يضر ذلك بكيانها ولا تضعف معه حيويتها وبعبارة اخرى لا يتراجع نموها ولا تتشاحب اظلالها ولا يتمازز طعم بلاغتها وفصاحتها

لنسأل الآن ما هي مقوّمات اللغة وبعبارة اخرى ما هي الامور الجوهرية فيها او الصفات الذاتية التي لا يستغنى عنها بل تبقى على مر الزمان فتتشعب وتتكيف بما يناسب حياة اللغة وارتقاءها . واذا فقدت او اهملت ماتت اللغة او توقفت عن النمو والتشعب ثم هي في الوقت نفسه لا يصح استعارتها من لغة اخرى ولا يمكن ايضاً ان تستعار وتبقى اللغة هي هي

ايها السادة — ان مقوّمات اللغة او الامور الجوهرية فيها هي شيء آخر غير الفاظها

المفردة — لا فرق بين ان تكون تلك الالفاظ اسماء او افعالاً او حروفاً ودليله ان هذه الالفاظ المفردة يمكن ان تستعمل اليوم وتهمل غداً كما انها يمكن ان ترادف وتكثر حتى تستثقل وتهجر . انظروا الى كثير مما عندنا في كتب اللغة من الاسماء والافعال مما هُجر او استكره وأهمل فانها تعدُّ بالمئات . وكثير من تلك الالفاظ ليس هو في الاصل من كلمات اللغة العربية انما هو من الفارسية او الرومية او الهندية استعيرت فاستعملت عند الحاجة وأهملت او أميتت عند عدمها — وتعلمون ان مقومات الشيء أو الامور الجوهرية فيه هي مما لا يفارقه وبعبارة اخرى هي مما لا يستغنى عنه حيناً ويحتاج اليه حيناً آخر . نعم ان كثيراً من اعراض الشيء قد تستمرُّ مصاحبتها له ولا يستغنى عنها بالفعل او في الخارج فهي من هذا القبيل كالمقوّمات له او كالصفات الجوهرية (اي الذاتية) منه . والفارق بينهما حينئذ أنه يمكن فرض الاستغناء عن الاعراض ويمكن أيضاً تصور الاستغناء عنها وتصور مفارقتها لمصحوباتها ولا يمكن فرض الاستغناء عن المقوّمات ولا تصوُّر الاستغناء عنها او مفارقتها لما تصحبه

استدركتُ ما استدركتُ لئلا يعترض علي ان كثيراً من الاسماء كالسماء والارض والبر والبحر والجبل والوادي والشجر والحجر كانت ولا تزال في لغتنا العربية لم تُهمَل ولا يخال أن تهمل وما زالت في استعمال كل يوم وفي استعمال كل جيل من الاجيال التي غبرت ونعرفها فكأنها هي مما لا يجوز اهمالها ولا يتصور الاستغناء عنها ومع ذلك هي الفاظ مفردة فكيف تكون من الامور العرضية في اللغة ؟ قلتُ وأقول انها من حيث هي اسماء مفردة ليست من مقومات اللغة اصلاً ويمكن الاستغناء عنها وانما استمرت في اللغة وفي استعمال كل يوم وكل جيل من أجيال اهل هذه اللغة لان مسمياتها مستمرَّة ومشاهدتها أي مشاهدة مسمياتها كذلك . وهذا ما يوهمنا انه لا يمكن الاستغناء عنها

لا بد لي هنا من استيفاء المراد اوالاطالة اذا شئتم هذه التسمية وإلا ظُنَّ بي اني أريد ما لا اريده او اني أكتب ما لا أفهمه . أيها السادة . الفرق كبير بين قولنا اسم وهذا الاسم وفعل وهذا الفعل وحرف وهذا الحرف ـ فان الاسماء والافعال والحروف من حيث هي أسماء وأفعال وحروف ضرورية في اللغة العربية وفي كل لغة أيضاً وهي من مقوّمات اللغة أو من الامور الجوهرية فيها ولا يمكن الاستغناء عنها حتى ولا تصور الاستغناء ولكن هذا الاسم وهذا الفعل وهذا الحرف يمكن تصور الاستغناء عنها وكثيراً ما يصحُّ الاستغناء عنها أيضاً

ظهر اذن لكم الفرق بين الضروري في اللغة وغير الضروري ورأيتم أيضاً الفرق

بين استغناء واستغناء وعليه فوجود الاسماء والافعال والحروف ضروري في كل اللغات المرتقية ولا يصح الاستغناء عنه (أي عن هذا الوجود) بوجه من الوجوه وأما كل لفظة من هذه الانواع الثلاثة لذاتها فيمكن الاستغناء عنها احياناً

بقي لي شيء آخر أقوله وهو ان زيادة لفظة او بضعة الفاظ من هذه الانواع الثلاثة على اللغة قد يكون فيها أحياناً غنى للغة لا يُقدَّرُ قدره وقد تكون الزيادة لغواً لا فائدة منها. والمحققون من اهل الذوق يعرفون الفرق بين زيادة وزيادة فيزيدون الالفاظ التي تزيد في غنى اللغة واتساعها ويتجنبون ما زيادته لغو لا فائدة منها — مثاله ان زيادة مترادف من الاسماء الموصوفة او من الصفات كزيادة جوشن مثلاً بمعنى صدر او درع وسميذع بمعنى شجاع اوسيف وسمسمان وسمساني بمعنى خفيف لطيف فانها زيادة قلما ننتفع بها لقلة ما نحتاج اليها ولذلك فاستعمالها في كتابتنا او استعارة لفظة مثلها او بمعناها من لغة أجنبية لنستعملها في معتاد استعمالاتنا هو في حكم اللغو والمكروه ويجب تجنبه بخلاف زيادة أو ادخال مثل الالفاظ الآتية وهي عَلَوَّاه — وما شاءالله — ويلة — وكمان — وهاي هاي — وهاي ليصه — وبراڤو فان في زيادة مثل هذه الالفاظ في أحاديثنا وكتاباتنا الادبية محلاً للفكرة والنظر على ما أظن وذلك لانها لا تغير من جوهر اللغة وفي الوقت نفسه الحاجة ماسة اليها بدليل كثرة استعمالها وجريانها على لسان العامة منا والخاصة في الشام ومصر والعراق حتى وفي الحجاز ونجد على ما أظن

ذهب بي الاستطراد الى اكثر مما أردته فحال دون ما أريد الى بيانه وتمكينه في الذهن وهو أن الالفاظ كل لفظة بعينها سواء كانت اسماً او فعلاً او حرفاً ليست من الامور الجوهرية في اللغة وبعبارة اخرى ليست في عمود اللغة ولا في مقوماتها فتفسد زيادتها اللغة اذا زيدت عليها او يتهدم بنيانها اذا اهملت أو اطرحت منها

ومثل الالفاظ المفردة في انه ليس من مقومات اللغة ولا من الامور الجوهرية فيها تغيُّرات الاعراب في اواخر الكلم المعربة ولاسيما التي ورد فيها مذاهب مختلفة . ودليلنا الوقف فانه جائز كثير الاستعمال شائعه قديماً وحديثاً لم ينقل عن نحوي قط انه منع جوازه. والوقف هو تعطيل الاعراب وازالة حكمه بتاتاً ويستحيل او اقله يمتنع ان تتعطل مقومات الشيء او يزول حكمه لان ما يتعطل او يجوز أن يتعطل وتزول أحكامه عن شيء لا يجوز أصلاً أن يكون من مقوّمات ذلك الشيء او من جوهرياته

الاعراب أيها السادة من اعراض اللغة العربية المضرية وأكثر ما نقول فيه انه بمنزلة العرض العام لا من الصفات الذاتية ولا من مزاياها الخاصة بدليل وجوده في غيرها

من اللغات العربية كاللغة اليونانية واللاتينية . وهو في كثير من المواقف زينة في اللغة لا غير الا انه قد يكون أحياناً مساعداً على الفهم ومنع الالتباس وحكمه حينئذ حكم القرائن المختلفة التي تساعد على سهولة الفهم وصرف المعنى الى ما يراد . ولهذا لا يجوز الاستخفاف به دائماً لكن المغالاة به حيث لا تصح المغالاة ضرب من انزال الشيء فوق منزلته وحسبان الخادم في كثير من المواضع مخدوماً وسيداً . وبالاجمال اقول ان المغالاة فيه التي هي في غير موضعها ضرب من السخف المضر . وأضر ما تكون اذا كانت احكامه خارجة عن القواعد الكلية المساعدة على فهم المعنى المراد وداخلة في ما تعمَّق به بعض اصحاب المذاهب الذين خلطوا فأدخلوا كثيراً من احكام علوم الكلام والفلسفة والخط في احكام النحو والاعراب مع بعد ما بينهما

ومن قبيل الالفاظ المفردة واعراب اواخر الكلم الهيئاتُ التركيبيةُ فانها اي الهيئات التي تتعلق بها فصاحة المركبات وبلاغتها حكمها حكم الالفاظ المفردة بمعنى انها من حيث هي تراكيب فصيحة او بليغة لا بدَّ من وجودها في اللغة . ولكن هذه الهيئة او هذا التركيب بهذه الالفاظ قد يسقط من اللغة او يزاد عليها مثله فلا يهدم سقوطه اركانها ولا تفسد بلاغتها زيادته او زيادة مثله عليها

وصلت الى نقطة لا اراني استطيع تركها من غير ان ابسط الكلام فيها شيئاً وهي :ـ يزعم كثيرون من اهل العربية ان الهيئات التركيبية فيها محصورة وهذا وان لم يقولوه صراحة يقولونه ضمناً . واذا كانت الهيئات التركيبية محصورة اذن لا يجوز الخروج عنها لان الخروج عنها خروج عن الفصاحة والبلاغة . ولما كانت الفصاحة والبلاغة من الكلام بمنزلة الكرم والشجاعة والعفَّة من الصفات الفاضلة كان التركيب الذي يعرى من هذه كالشخص الذي يعرى من تلك . وفي هذا القول كثير من الحق والصواب وكثير من الباطل والخطاء

اما الحق والصواب ففي ان الهيئات التركيبية اذا خلت من الفصاحة والبلاغة خرجت عن ان تكون اجزاء لغة راقية ومسخت اللغة عن صورتها العاقلة الادبية الى ما هو دون ذلك وأما الباطل والخطاء ففي امور كثيرة نتوهم . منها

(اولاً) ان الهيئات التركيبية الفصيحة والبليغة محصورة وأنها محصورة في التراكيب التي وصلت الينا عن العرب في نحو من مئتي سنة على الاكثر . فان هذا مما لا يقول به صاحب رَويَّة . وهو وان كان ممكناً ان يكون عقلاً فلا يمكن ان يكون وجوداً لان البلاغة تقتضي المطابقة لمقتضى الحال ومقتضى الحال يختلف باختلاف الزمان والمكان وباختلاف

المخاطِب والمخاطَب واختلاف احوالهما . واختلاف الزمان والمكان مضافاً اليه اختلاف المتكلمين واختلاف افكارهم ومشاربهم وقوى عقولهم يتولد عنه من الصور ما لا يقع تحت حصر وجودي . ثم على فرض انه يستطاع حصر الهيئات التركيبية الفصيحة والبليغة بعدد معلوم فهذا العدد يتجاوز المئات وربما تجاوز العدد المركب منها . وهذا العدد من هذه الصور والهيئات يستحيل على العقل الانساني الاحاطة بتصوره في زمان من ازمنته المحدودة . والحصر الفعلي الذي يترتب عليه فائدة لا يكون الا اذا احاط الفكر بالمتصوَّر وتخيله جميعه دفعة واحدة او ما هو من قبيل الدفعة الواحدة

(ثانياً) ان تكون الهيئات التركيبية المعلومة علماً اجمالياً عند ادباء العربية مما اودعته اسفار الادب ودفاتره كلها فصيحة بليغة فان ذلك مما يصعب التسليم به . وأكثر من ذلك ان تكون الهيئات التركيبية المنقولة في كلام من كانوا قبل الاسلام افصح وأبلغ من هذه الهيئات المنقولة عن أمثالهم في صدر الاسلام وبعده الى عصرنا الحاضر . فان هذا الخطاء شائع متداول وأكثر ادبائنا والمشتغلين بعلوم البلاغة منا قديماً وحديثاً كأنما هم يذهبون اليه فيرون في الهيئات التركيبية والمركبات المنقولة عن اصحاب المعلقات وغيرهم ممن سبقهم او عاصرهم — فصاحة وبلاغة لا يرون مثلها لمن جاء بعدهم من مولدي الاسلام ومولدي مولديهم . بل كثيرون على ما يخال يذهبون الى ان جميع ما نُقل عن الجاهلية فصيح بليغ بلا استثناء وهذا وهم فاضح ومن الاسف انهُ شائع مقبول عند الكثيرين من غير تجريح ويكاد الاقلون ممن يرتابون بصحة هذا الزعم لا يجسرون ان يرفعوا اصواتهم في نفيه او الاعتراض عليه انما هم يتهامسون به همساً فيما بينهم

(ثالثاً) من الخطاء ايضاً ذهاب كثيرين الى ان الفصاحة والبلاغة درجة واحدة وهذه الدرجة يرونها في هذا النوع من الكلام الذي يهيج من حاسة الاستحسان وما ناسبها او من حاسة الاستهجان وما ناسبها . فان رأوا مبالغة قد تخرج عن حد المقبول أو رأوا تشبيهاً أو استعارة في مدح ممدوح أو ذم مذموم او في فخر او في نسيب او في حكمة وجاء شيء منها في شيء من الغرابة المقبولة اكبروا ذلك وظنوا ان هذا الذي اكبروه انما جاء من قبيل بلاغة الهيئة التركيبية . وقد لا يكون هناك فصاحة ولا بلاغة في التركيب تدعو الى مثل ذلك الاستحسان بل الاستحسان انما كان لتلك المبالغة او الاستعارة او لذلك التشبيه وما صحب المبالغة من الغرابة او صحب الاستعارة والتشبيه من الغرابة والمطابقة . والمحققون على ان بلاغة التركيب قد تكون ولا يكون هناك استعارة ولا تشبيه وقد تكون ويكونان معاً ولكنهما متمايزان في نفسيهما كل التمايز وان خفي

ذلك على كثير من البلغاء بالفطرة او المتبالغين . وهذا الخلط بين حسن الاستعارة او التشبيه وبين بلاغة المركب والتركيب كان فاشياً في ايام الامام العلامة الجرجاني صاحب كتاب اسرار البلاغة وكان يؤلمه أيضاً

والخلاصة ان ما يتشبع به من ان هذه التراكيب والهيئات التي جاءت في كلام الجاهلية هي التي بها قامت مقوّمات اللغة العربية وتفوقت على غيرها من اخواتها الساميات وعلى غيرهن من اللغات الاخرى هو مجرد تشيُّع يقول به أقوام قلوا او كثروا ولكنه عارٍ من التحقيق . فالبلاغة غير منحصرة في جيل دون جيل ولا هي أيضاً خاصة بزمان دون زمان ولا بمكان دون مكان وان اختلفت وتباينت باختلاف الزمان والمكان. وعليه نقول ان امرأ القيس كان بليغاً في عصره وكذلك كان جرير والفرزدق والاخطل في عصرهم وكذلك كان ابو نواس وأبو تمام والبحتري كل في عصره شاعر بليغ الا ان بلاغة جرير والفرزدق قد تكون في نوعها غير بلاغة ابي تمام والبحتري كما لا يبعد أن تكون بلاغة هذين غير بلاغة المتنبي وغير بلاغة ابي فراس الحمداني — تكون غيرها ولا تكون اعلى درجة منها — وهكذا يقال في بلاغة امرىء القيس وغيره من اصحاب المعلقات انها غير بلاغة ابي نواس او أبي الطيب المتنبي ولكنها وان كانت غيرها قد لا تكون اسمى منها . ولا دخل في ذلك لتقدم زمان امرىء القيس ولا لتأخر زمان المتنبي بل بلاغة المتنبي قد تكون اعلى وأوسع من بلاغة امرىء القيس (وهي كذلك) على نسبة ما كانت مدارك هذا اعلى من مدارك ذاك — وما قلته في المتنبي وامرء القيس اقول مثله في ابي نواس والبحتري فانهما وان تأخرا عن جرير والاخطل في الزمان فقد تقدماهما في البلاغة وان كان الاولان اقرب الى مناحي البداوة والثانيان الى مناحي الحضارة

لكن يقول قوم ان امرء القيس يستشهد بكلامه في اللغة والاعراب ولا يستشهد بكلام المتنبي وكذلك يستشهد بكلام الفرزدق والاخطل ولا يستشهد بكلام ابي تمام والبحتري . ويستنتجون من ذلك ان امرأ القيس ابلغ من المتنبي والفرزدق والاخطل ابلغ من ابي تمام والبحتري. والاستطراد الى الرد على فساد هذه المزاعم وأشباهها يخرجني الى مالا يحتمله المقام فأجتزي بسرد القصة التالية

حكي ان ابن الانباري دخل على قوم فأنشده بعضهم قصيدة لابي تمام ونسبها المنشد الى أحد شعراء الجاهلية فطرب لها ابن الانباري وأمر كاتبهُ ان يودعها في دفاتره فلما أتى الكاتب على آخرها قيل له هي لابي تمام فقال ابن الانباري — « من أجل هذا رأيت أثر الركاكة عليها — خرّق ياغلام خرّق خرّق » . وكنت أحب ان انقل القصة بحروفها

كما قرأتها ولكني أنسيت الكتاب الذي قرأتها فيه وبقي في ذهني ان الكتاب من الكتب التي يعتمد على صحة روايتها (١)

ولا اقول ان هذه الفكرة عمت بدون استثناء ولكن اقول ان الكثيرين أخذوا بها في الاجيال التي مرت قبلنا فغلب رأيهم على رأي المحققين من العقلاء في كل جيل الذين كانوا يقولون ان اللغوي شأنه أن ينقل ما نطقت به العرب ولا يتعداه وأما النحوي فشأنه ان يتصرف فيما ينقله اللغوي ويقيس عليه «المزهر جزء اول وجه ٣٠ طبعة بولاق»

ترون أيها السادة اني لا أحسب الالفاظ المفردة من حيث هي الفاظ مفردة ولا الحركات الاعرابية ولا كثيراً من المذاهب والتعليمات الصرفية والنحوية من مقومات اللغة العربية ولا من القفيات التي امتازت بها فكانت سبباً لتفوقها على كثير غيرها من اللغات الراقية ولا أذهب أيضاً الى ان بلاغة الجاهلية جوهرية في اللغة العربية حتى اذا خرج الكتاب عن محاذاتها والصوغ على قوالبها الى ماتدعوهم اليه أذواقهم وتخيلاتهم فسدت اللغة العربية وانحطت رتبتها العالية بين اللغات المرتقية وانحط أهلها أيضاً تبعاً لانحطاطها . بل اعتقد ان بقاءنا على تحدي بلاغة الجاهلية وتوخيها في كتاباتنا لا يجوز لنا ولا يكون بلاغة أيضاً الا اذا كانت عقولنا ومدركاتنا وبالتالي عاداتنا ومألوفاتنا الاجتماعية الحسية والادبية شبيهة تمام المشابهة بما كانت عليه عقول الجاهلية ومدركاتها وعاداتها وسائر أحوالها الاجتماعية . لان البلاغة عند التحقيق تقوم بانطباق الصورة الكلامية الخارجية على الصورة الداخلية الذهنية . ولا شك ان الصورة الذهنية لقوم أو لجيل من الاجيال في زمانين متباعدين لابد أن يقع فيها تغير يقل او يكثر على نسبة ما يقل الاختلاف او يكثر بين ظواهر تمدن الجيل في ذينك الزمانين . فان بقي التمدن واحداً (اي جميع المظاهر الاجتماعية الخارجية وما دعا اليها من الاستعداد العقلي والديني والادبي) بقيت الصورة الذهنية لاهل الجيل في الزمانين واحدة وبالضرورة تبقى او يصح ان تبقى الهيئات التركيبية البليغة واحدة عندها والا فلا . اذن فالذين يريدوننا على تحدي بلاغة الجاهلية اوتوخيها لانخرج عنها في شيء كأنما هم يقولون لنا ان افكاركم وتخيلاتكم ومدركاتكم ومعلوماتكم لا بل وتحيطاتكم الاجتماعية هي وأفكار الجاهلية وتخيلاتهم الخ شيء واحد. ان كان بينكم من يسلم بصحة هذا فليتحد وليتوخ بلاغة امرىء القيس والحارث بن حلزة والاعشى وغيرهم وليحذو حذوهم

اذا لم تكن الالفاظ المفردة ولا الجمل المفردة ولا علامات الاعراب ولا هذه الهيئة

---

(١) ملاحظة اظن تلك الحادثة عن ابن الأعرابي لا ابن الانباري

التركيبية او تلك بعينها من مقوّمات اللغة العربية ولا من صفاتها الجوهرية الثابتة والتي ينبغي أن تثبت وترقى وتتكيف مع الايام فما هو اذن ذلك الشيء الذي تميزت به العربية وجعلها تتفوق على غيرها من اللغات ولا يزال باقياً بل وينبغي ان يبقى لا تخلق جدته مع الايام. والجواب على ما ارى هو الاشتقاق والقياس . الاشتقاق على ما ينبغي ان يُفهَم منه والقياس على ما ينبغي ان يُفهَم منه في كل انواعه وفي كل نوع من انواع الكلم العربية والدخيلة المعربة ايضاً ان كانت

ايها السادة ان الاشتقاق ضروري في كل لغة لا تستقل لغة عن غيرها الا به ولا تترقى الا به فان استقل وترقى استقلت اللغة عن غيرها وترقت وان تميز الاشتقاق وانفرد في كل لغة من لغتين تميزت اللغتان وانفردت كل منهما عن غيرها والا فان تشابه واشترك تشابهتا واشتركتا . مثاله اللغة التركية فانها على كثرة الالفاظ المفردة المستعارة من العربية وعلى كثرة الجمل التامة المأخوذة كما هي منها اي من العربية لا تزال لغة مستقلة عن العربية متمايزة عنها تمام التمايز . ان في التركية مئات وألوفاً من الالفاظ العربية كما ان فيها مئات وألوفاً من العبارات والجمل التامة المستعارة رأساً من تلك اللغة يعلم ذلك من يعلمه ومع ذلك هي في غاية البعد والتمايز عن اللغة العربية بخلاف العبرانية فانها مع بعدها بحسب الظاهر عن العربية حتى يخيل للناظر ان التركية اقرب منها اليها بمرات فمع ذلك هي والعربية اختان بينهما من المشابهة والاشتراك في الخصائص والقفيات الشيء الكثير كما يعلمه علماء اللغات المحققين الذين يؤخذ بقولهم وكل ذلك لاشتراك الاشتقاق وقرب شبهه في الواحدة بما هو عليه في الاخرى

الاشتقاق في كل لغة هو الامر الجوهري فيها . هو عماد اللغة وأقوم مقوّم من مقوّماتها . وبعبارة اخرى هو حياتها وعليه يتوقف ارتقاؤها او انحطاطها . تقدمها او تأخرها . واذا اردنا التمثيل قلنا هو من اللغة كالحيوان او الناطق في تحديد الانسان بل ربما هو اكثر من ذلك وقد لا يخطىء من يقول ان اللغة هي الاشتقاق. الفاظ اللغة تموت وتحيا اي يهمل استعمال بعضها فتموت ويستجد استعمال اخرى فتحيا ولا يمضي زمان يذكر إلا ويموت كثير من الالفاظ في كل لغة ومن بينها العربية ويحيا كثير ايضاً . واللغات السامية المرتقية هي ما كانت مواليد الفاظها اكثر من وفياتها . والعاقل المتأمل يعلم ان كثرة مواليد الالفاظ وقلتها في اللغة يتوقف على الاشتقاق فان كان الاشتقاق مرتقياً نشيطاً كثرت مواليده وعاشت وإلا قلّت وماتت . وعليه فأرقى اللغات وأكثرها حياة هي ما كان الاشتقاق فيها أتمّ منه في ما سواها داخلاً في كل فرع من فروعها

أيها السادة الكرام اذا سلمنا ان انمى اللغات وأرقاها هي اكثرها زيادة عدد مواليد في الفاظها وعباراتها واذا سلمنا ايضاً ولا بد للعاقل المتأمل من التسليم أن اللغة الثابتة على ما كانت عليه اما لغة ميتة محنطة كالموميا المصرية واللغة العبرانية القديمة او هي لغة شاخت فتوقفت عن النمو وأخذت تتراجع عما كانت عليه . اذا سلمنا بما مرَّ اذن فالذين يحاولون ابقاء لغتنا العربية على ما كانت عليه في الفاظها وعباراتها وهيئات تراكيبها لا يسمحون بزيادتها بوجه من الوجوه لا بالاستعارة ولا بالاشتقاق هؤلاء ينادون علناً ان اللغة العربية قد ماتت او شاخت وان انكروا ذلك وسلموا كما هو الواقع ان العربية لغة حية نامية فعدم سماحهم بزيادة مفرداتها لا بالاستعارة ولا بالاشتقاق تصريح واضح منهم انهم يريدون ويسعون بكل مكنتهم الى اماتتها ولا نعلم أذلك من محبتهم لهذه اللغة الشريفة أم من بغضهم لها والمرجح عندي ان ذلك من شدة حبهم لها ولكنه الحب مع الجهل

وان قليل الحب بالعقل صالحٌ وان كثير الحب بالجهل فاسدُ

دعونا نوجه خواطرنا الى مشهد آخر من مشاهد محبي العربية . من جملة هؤلاء المحبين من يعترفون بألسنتهم انهم لا يرون بأساً بزيادة مفردات العربية بالاستعارة تارة وبالاشتقاق اخرى فيأذنون بزيادة تلغراف وأوتوموبيل مثلاً وبزيادة أبرق ومغنط ولكنهم لا يتسامحون لاحد ان يقول كما قال الحريري — واستعنت بقاطبة الكتاب فكل منهم قطب وتاب . ويجيزون له ان يقول استعنت بالكتاب قاطبة اكتع ابتع ابصع لا يرون بأساً في زيادة عدد الكتعان والبتعان والبصعان لان كل ذلك اهون عليهم من الخروج بقاطبة عن النصب حالا الى الجر بالاضافة ويحتجون بقولهم ان ذلك لم يسمع او لم يرد عن العرب . ومثل هؤلاء فئة يقولون — هذه عبارة افرنجية — وهذا تركيب خارج عن مناحي التراكيب الجاهلية البليغة — شُلَّت يمين كاتبه ولسان قائله لانه يريد ان يُفسِدَ علينا فصاحة العربية وبلاغتها — يقولون ذلك ولو كانت العبارة اوضح من فلق الصبح على المعنى المستعملة فيه . ومثل هؤلاء المار ذكرهم يتبجحون اذا قالوا مثلاً — وما زال يفتل منه في الذروة والغارب حتى اداره الى ما يريد — ويصرخون بالويل والثبور اذا رأوا من يقول مثلاً — وما زال يأخذه ويجيء به حتى اداره الى ما يريد — او ما زال يداوره حتى اداره الى ما يريد . ولماذا ذلك ؟ لان جملة — يفتل منه في الذروة والغارب — وردت عن العرب ولم ترد جملة — يأخذه ويجيء به — ولا جملة — ويداوره — مع ان جملة يأخذه ويجيء به من باب الكناية التي لا اوضح منها في محيطنا الآن على المعنى المراد وهي من باب قولهم — يقدم رجلاً ويؤخر اخرى — وأما يداوره

فمن باب القياس اي تقول داوره قياساً على حاسَنَهُ وسايرَهُ وقاعَدَهُ وقاومه ونازعه الحديث وأشباه هذه

بل لا نعدم من هذه الفئة كثيرين يرون في قولي قبيل الآن — ويصرخون بالويل والثبور اذا رأوا من يقول — افساداً للغة ليس من ورائه افساد لاني استعملت رأوا من يقول — بدلاً من سمعوا من يقول — يزعمون اخذاً بالظاهر القريب ان رأى لا تقوم مقام سمع

أيها السادة والاخوة الكرام ان سرَّ تفوُّق اللغة العربية وأنها من اشرف اللغات القديمة والحديثة وأنها احق لغة بأن تحيا كما قال بعض علماء الاميركان المحققين هو لانها لغة باب الاشتقاق والقياس فيها واسع جداً لا يضيق عن أن يسع العقل ان يدخل منه مهما طال قوامه واتسع صدره بل كلٌّ من الاشتقاق والقياس فيها يفسح مجالاً للعقل ان يدخل منه الى باحات هذه اللغة الشريفة وأن لبس قلنسوة اطول من قلنسوة ابي دلامة او جبة اوسع من جبة ممدوح ابي تمام الذي يقول فيه

غمر الرداء اذا تبسم ضاحكاً غلقت لضحكته رقاب المال

فيالله اذن من كثيرين ممن يدَّعون حبَّ هذه اللغة الشريفة ولكنهم يحظرون على العقل ان يزورها في الاحايين حتى ولو كانت زيارته الماماً واطلالا من باب دارها الخارجي ولطالما كان قبل عهدهم في ايام الجاهلية وصدر الاسلام يزورها غير معارض فيدخل كل مخدع من مخادع مشتقاتها وكل عطفة من عطفات قياسها يأمر وينهى بما يقتضي لا يضيق ولا يعنت

ايها السادة اما الآن وقد فششت كربي من بعض هؤلاء الذين يحبون اللغة العربية بزعمهم ولكنهم يعملون على اماتتها ولا يعلمون فأتقدم الى بيان ما هو عليه الاشتقاق من الاتساع في هذه اللغة السيدة بين اللغات وما يزيد اتساعه في غنى اللغة ويهون على الشعراء والكتاب في ابراز ثمرات عقولهم وايداعها في احسن قوالب النثر والنظم . والاشتقاق منه في الاسماء ومنه في الافعال فلنبدأ بالاشتقاق في الاسماء

ان للمصدر نيفاً وثلاثين صورة فيما اعلم ومن اقربها وأكثرها استعمالاً الاوزان الآتية وهي وزن فُعْل وفَعْل وفِعْل وفُعال وفَعال وفِعال بدون التاء او بالتاء وفُعول وفُعولة وفَعَل وفَعلان الخ . وكل هذه الصور تأتي ايضاً لاسم المصدر فضلاً عن غيرها من الصور الاخرى

ومثل المصدر الصفة فان لها من الصور ما يزيد عن صور المصادر او يساويها على

الاقل ومن تلك الصور وزن فاعِل وفَعِل وفَعْل وفعلان وفعول وفعيل ومفعال ومفعالة وفعّال وفعّالة وفاعول وفاعولة ويفعول ويفعولة ويفعّلة ويفعلي وفعيل وفعلعل وهلم جرًّا وهذه الاوزان هي التي يسمونها بالسماعية فيكون مصدر هذا الفعل على وزن او وزنين او اكثر من هذه الاوزان ومصدر ذاك على وزن او وزنين آخرين وهلمَّ جرًّا . وهكذا الصفة فانها تكون من هذا الفعل او هذا الفريق من الافعال على وزن فاعل او فَعِل او فعْلان وقد يكون لها صورتان او ثلاث صور او اربع وقد تبلغ من بعض الافعال الى الصور العشر وفي ذلك ما فيه من الغنى في المترادفات . وهناك أيضاً صور اخرى من باب السماعيّ للزمان والمكان واسم الآلة والمصدر الميمي لا احتاج ان اطيل عليكم بذكرها

بقيت الصورُ القياسية للمزيدات فان لكل مزيد من مزيدات الافعال الرباعية والخماسية والسداسية صورة معينة لكل من المصدر على انواعه والصفة على انواعها واسم المكان والزمان . وقد يكون للمصدر صورتان قياسيتان كما هو معروف مشهور في وزني فعّل وفاعل — ممن منا لا يعرف انَّ الفعل استعان مثلاً يأتي منه الاستعانة والمستعان والمستعين والمستعان به مصدراً ومؤكداً وميمياً واسم فاعل واسم مفعول على الترتيب

ومن قبيل الاشتقاق في الاسم الابواب الآتية وهي باب المثنى والجمع المكسر والسالم وباب النسبة والتصغير . والبابان الاخيران يلحقان بالصفة فيزيدان من غنى اللغة المعنوي وأما باب الجمع المكسر والسالم فيزيدان في مترادفات اللغة زيادة لا يعلم قيمتها المتعلم ويعلمها الشاعر او الناثر الساجع

نعم المتعلم يتبرم من ضوابط جمع التكسير التي وضعها الصرفيون لكثرتها وصعوبة حفظها غيباً ولكنَّ الشاعر الذي يعلم ان جمع ظلّ ظلال وأظلال وظلول وأظاليل يستفيد من هذه المعرفة وأيما فائدة فانه يمكنه ان يستخدم ظلال في قافية كقافية

بقاني شاء ليس هم ارتحالا وحسن الصبر زمُّوا لا الجمالا

وظلول في قافية مثل قافية

في الخدان عزم الخليط رحيلا مطر تزيد به الخدود تحولا

وأظلال في مثل قافية

شرف ينطح النجوم بروقيه وعزٌّ يقلقلُ الاجبالا

وأظاليل في مثل

بانت سعادُ فقي العينين ملمولُ من حبها وصحيحُ الجسم مخبولُ

وقس على ظلال وأظلال وظلول بحار وأبحار وبحور فان صور الجمع المتعدّدة والمجموع واحد تنزل منزلة المترادفات بل المترادفات قلما تتساوى في المعنى ولذلك فقلما يتهيأ للشاعر او للناثر ان يضع مترادفاً موضع صاحبه ولا يختلّ المعنى شيئاً بخلاف صور الجمع المتعددة فان كل صورة منها يصح ان تنوب مناب صاحبتها وتوضع بدلاً منها من غير مخافة ان يختلّ المعنى المراد او يختلف عما قصد له بمقدار شعرة او ذرة

واذا علمتم هذا ان تعدد صور الجمع والمجموع واحد ليس هو ثالث في غصن الجموع العربية تشوّه كما يزعم بعض المتفيهقين المقلدين من منظره وتخشّن مسه وتعوّج قوامه . بل هي غصينات الارز الجميل تزيد الغصن الاصلي جمالاً ورواء وتجعل ظلّه النضير الرائع ظليلاً وارفاً

الاشتقاق في الافعال

في اللغة العربية اربع عشرة صورة وهي أفْعَلَ وفَعَّل وفاعل وتفعّل وتفاعل وانْفَعَلَ وافْتَعَلَ وافعلّ وافعالّ واسْتَفْعَلَ وافعوعَل وفَعْلَلَ وتَفَعْلَلَ وافْعَلَلَّ وكلٌّ منها تأتي لعدة معان . واشباع الكلام فيها لا يكفيه مجلد ضخم فأنى لي أن أتخيّل تخيُّلاً أني استوعبت الكلام فيه بما يجلي لاذهانكم أهمية هذا الاشتقاق في العربية وأنها من هذا القبيل تفوق كل لغة من لغات الغربيين والشرقيين لا أستثني لغة اصلاومع ذلك يزعم بعضهم انها لغة ميتة او انها شاخت وقاربت الهلاك . كان البعض من متحمسة فتيان الاتراك يزعمون هذا الزعم ولا نلومهم لانهم يعرفون آداب اللغة الفرنساوية اكثر مما يعرفون آداب لغتهم ولا نقول آداب العربية وتحمسهم الشديد كان للحالة الجديدة التي زعموا معها أن يوحّدوا اللغة في كل الولايات العثمانية فيصبح العثمانيون كلهم يتكلمون لغة واحدة هي اللغة التركية كما يتكلم الفرنساويون الفرنساوية والاميركان سكان الولايات المتحدة الانكليزية. ذلك صوّر لهم ما صوّر مما زعموا معه هذا الزعم الفاسد او تزاعموه ولا نلومهم كما نلوم البعض او الكل من ابناء العربية ومحبيها ممن يسمعون ان لم يكونوا يعرفون ذلك عن علم ان لغتهم الشريفة اوسع اللغات اشتقاقاً وأكملها في ذلك حتى قال فيها بعض علماء الاميركان الاعلام كما المعنا سابقاً ونحب ان نكرره الآن انها اللغة الخالدة او اللغة التي هي احق اللغات بالحياة والبقاء . ومع معرفتهم هذه المعرفة يريدون أن يميتوا هذه اللغة الشريفة بسدّهم باب الاشتقاق وحظرهم استعماله الا فيما هو تافه او عديم الجدوى ويؤدي الى الخطاء. نلوم هؤلاء لانهم يعظمون ما اشتق ويذكرونه

ويحقرون الاشتقاق وينسونه يعتبرون ما قيس ولا يعتبرون القياس . يحافظون على المولدات ولو كانت اجهاضاً او اصبحت هائم وقذاعيم ويهملون القوة المولدة ويعملون على اماتها فيالله منهم

ماذا اخذت اللغة العربية وماذا اعطت

وصلت الآن الى موضوعي بعد ان مهدت له هذا التمهيد الطويل العريض والواقف عليه معي وقد ماشاني كل الطريق خطوة خطوة يدرك من غير عناء ان العربية لم تكن في حاجة الى غيرها من اللغات بفضل اتساع اشتقاقها وقياسيته ووضوح المعنى المراد مما اشتق من الالفاظ وفقاً له سواء كانت تلك الالفاظ افعالا او اسماء فان من يعرف معنى القشعريرة يفهم حالا الفعل المشتق منها اعني اقشعر وهكذا من يفهم معنى استحق فانه يفهم حالا معنى المصدر واسم الفاعل والمفعول المشتقات منه قياسيًّا . ومن يعلم ان تميم علم لقبيلة من قبائل العرب وأن بيروت علم لمدينة يفهم من قولنا رجل تميمي او بيروتي انه من بني تميم او من اهل بيروت فهماً يتسارع الى الذهن كتسارع الصوت الى الاذن او النور الى العين . وكذلك من يفهم معنى قدم وحسن يفهم حالا معاني مطاوعاتها تقدم وتحسن وهلم جراً . وغاية ما اخذته العربية عن غيرها من اللغات بعض الفاظ مفردة من باب الاسماء لا تتجاوز بعض المئين واكثرها من الاسماء الجامدة كخز وديباج واستبرق وترياق وفالوذج مما وجدوه عند غيرهم من امتي فارس والروم ولم يوجد عندهم . ولو كان يسعني المقام لعددت لكم تلك الاسماء المعروفة بالدخيلة او المعربة فانها لا تملأ اكثر من بضع صفحات في كتاب المزهر للامام السيوطي

وأما علماء هذه الامة الذين ظهروا فيها بعد الفتوحات العربية الاولى ونقلوا العلم اليها من الفارسية او اليونانية او السريانية فلم يحتاجوا الا الى بعض اسماء حكمها حكم الالفاظ التي المعنا اليها سابقاً . وبالجملة نقول ان علماء العربية هم الذين اخذوا عن العلماء الذين جاوروهم من الفرس والروم والسريان دون العربية فانها لم تأخذ عن الفارسية ولا عن الرومية ولا عن السريانية والمضرب لذلك مثلاً — ان علماء العربية اخذوا علم المنطق عن علماء اليونان اما رأساً او نقلاً عن السريانية ولكنهم لم يأخذوا الفاظ هذا العلم كما هي عن اليونان بل قالوا موضوع ومحمول وقضية وقياس واستنتاج ومقدمة صغرى ومقدمة كبرى ونتيجة والمقولات العشر والقول الشارح والتصور والتصديق وكلي وجزئي وقضية كلية وقضية كلية مهملة . وقضية كلية مسوّرة . وهلم جرًّا من مصطلحات هذا العلم

وأخذ العلماء الغربيون هذا العلم عن اليونان كما اخذه علماء العرب اما رأساً او عن

اللاتينية وأخذته لغاتهم ايضاً عن اللغة اليونانية او اللاتينية لانهم قالوا سبجكت وبراديكت الموضوع والمحمول وقالوا كتيغوري اي المقولات العشر وهلم جرًّا اي ان لغتهم اخذت نفس الحدود عن اللغة اليونانية بخلاف العربية فانها استغنت عن الفاظ تلك الحدود اليونانية بألفاظ من الفاظها أدت معانيها تمام التأدية من غير صعوبة ولا التباس

وما قيل في المنطق يقال في علوم الفلسفة فانهم اي علماء العربية اخذوا هذا العلم عن غيرهم اما لغتهم فلم تحتج الى لغة القوم ورأت فيها من الالفاظ ما يؤدي معاني الفاظ ذلك العلم فقالوا موجود ومعدوم وعرض وجوهر وحال وكسر وانكسار وتأثر وأثر وماهية وحوية ومقتضي وما نع ومعارض وقالوا الماهيات مجعولة بجعل جاعل وغير مجعولة والعقل الاول والمبدأ الفياض وغير ذلك من مصطلحات الفلسفة كثير . وأنتم ترون ان كل هذه الالفاظ من صميم الالفاظ العربية والعارفون منكم هذه المصطلحات بالفرنساوية او الانكليزية يعلمون ان اغلب هذه الالفاظ مأخوذة عن اللاتينية او اليونانية بل يعلمون ان علماء هاتين الامتين ما زالوا يؤلفون في اللغة اللاتينية الى عهد قريب لعدم استطاعة لغاتهم اولاً ان تتحمل هذه العلوم بنفسها بخلاف العربية فانها تحملتها حالا وأصبحت تلك العلوم كأنها موضوعة فيها ابتداء وكان من علماء اللاتين والجرمان انهم ترجموا في بادىء امرهم اكثر تلك العلوم عن اللغة العربية

وهكذا كان الامر ايضاً في علوم الطبيعة كالطبيعيات والطب والكيمياء والفلك والنبات والحيوان فان اللغة العربية لم تحتج في كل هذه العلوم الا الى الالفاظ التي تستعار استعارة لان مسمياتها من نبات وحيوان لم تكن معروفة في البلاد العربية لانها لا تعيش فيها وتعيش في غيرها من البلدان فأخذوا الاسم بأخذ المسمى وهكذا الحال فيها لو كان اللفظ المأخوذ اسماً لآلة مخصوصة صنعها صُنَّاع تلك الامم قبل ان عرفها العرب والعربية بمئات من السنين

وأما ما اعطته العربية لغيرها من اللغات والامم فكثير ومن ذلك (١) انها اعطت حروفها الهجائية لملايين ملايين من الشعوب في بلاد الترك والهند وجزائر البحر فان المورو في جزائر الفيليبين يكتبون لغتهم بالحروف العربية لحد هذه الساعة

(٢) اعطت نفسها لكثير من الامم الذين تغلبوا على اهلها او تغلب اهلها عليهم مئات من السنين فكانت لهم ما كانت اللغة اللاتينية لشعوب اوربا فان الاتراك والتتر والفرس ما زال علماؤهم يؤلفون مؤلفاتهم في اللغة العربية الى عهد قريب ولا يزال كثير من علمائهم الى الآن يؤلفون في العربية فقد اهدي اليَّ منذ بضع سنين مؤلف

تاريخي في العربية لزين الدين الرسولي احد علماء قازان من روسيا

(٣) اعطت لغات الأتراك والتتر والفرس والاردو (احدى لغات الهند) المئات والالوف من الفاظ المعاني ومئات وألوفاً من الجمل التامة بل اعطت اكثر هذه اللغات ولا سيما التركية كل مصطلحات علوم اللغة والبيان والبديع والعروض واكثر مصطلحات العلوم والفلسفة حتى بدء القرن التاسع عشر وما بعده ايضاً

(٤) نفتخر انا اعطينا لغات اوربا الارقام العربية وكثيراً من اسماء المعاني والمصطلحات العلمية ولكنها قليلة كان اولى بنا الاضراب عن المفاخرة بها

(٥) وأخيراً اشكر لكم ايها السادة والسيدات والاخوة الكرام لانكم احسنتم الاصغاء اليَّ كل هذه الساعة وتابعتموني في مضايق هذا الموضوع لم تظهروا شكوى من اطالتي ولا تبرماً بخطابتي . وقد كنت احب ان اتوسع في بيان — لماذا احتملت لغتنا العربية الشريفة في ايام العباسيين مثلاً علوم اليونان والفرس والسريان بدون ان يظهر عليها عجز او ضعف ولا تستطيع اليوم ان تحتمل علوم الاوربيين على ما يزعم الاكثرون مع ان هؤلاء كانوا يترجمون كتب العلم والفلسفة عنها منذ بضعة قرون . الا اني لا ارى من اللياقة ولا الحكمة ان استنفد كل صبركم دفعة واحدة فتكرموا اذن في الختام غير مأمورين بقبول مزيد شكري وامتناني ولكم الفضل اولاً وآخراً

اعتذر الى القراء الكرام بما اعتذرت به الى السامعين فاني اعتقد ان اغلبهم لايحتملون ان يقرأوا في هذا الموضوع فوق ما قد قرأوا والسلام